أنس الغريب

بشرح قصيدة

ليس الغريب

تأليف

أبي زكريا بشير بن فيصل بن يحيى بن غالب الجعشني الإبي

غفر الله له ولوالديه وسائر المسلمين آمين

مسجد أهل السنة والجماعة . جامع الرحمن . شحن . المهرة حرسها الله

الطبعة الأولى

٢٧/ذي القعدة / ١٤٤٧هـ

أنس الغريب

بشرح قصيدة

ليس الغريب

مقدمة الشيخ فيصل الحاشدي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، أمَّا بعدُ:

فقد اطَّلعتُ على القصيدةِ المنسوبةِ لعلي بن الحسين زين العابدين رحمه الله، وما كتبه أخي الداعيةُ المباركُ بـ **شيرُ الجعشنيُّ** في شرحِها، فوجدتُّه ـ كعهدي به ـ قد أجادَ وأفادَ، ووفَّى بالمُرادِ.

إذْ يَعرِضُ البيتَ مِنَ القصيدةِ، ثم يَشرَحُه شرحًا مختصرًا وافيًا، بأسلوبٍ سهلٍ، وعبارةٍ وجيزةٍ، مع حُسنِ ترتيبٍ، ووضوحِ معنى، وانتقاءٍ للفوائدِ والإشاراتِ النافعةِ، ممَّا يُقرِّبُ معاني القصيدةِ إلى القارئ، ويُعينُ على فهمِ مقاصدِها.

وقد ظهر في هذا الشرحِ حِرصُ الشارحِ على البيانِ والإيضاحِ، مع سلوكِ طريقِ الاختصارِ غيرِ المُخِلِّ، فجزاهُ اللهُ خيرًا، وبارك في علمِهِ وعملِهِ، ونفعَ به الإسلامَ والمسلمين.

وأسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهِهِ الكريمِ، وأن يكتبَ له القبولَ والنفعَ، وأن يوفِّقَ أخانا الشارحَ لكلِّ خيرٍ وبركةٍ.

وكتبه

فيصلُ الحاشدي

في مدينةِ القاعدة

يومَ الجمعة ٢٨ من شهرِ ذي القعدة سنةَ ١٤٤٧هـ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ نَذِيرًا، فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ كَانُوا لِلقَاءَ اللهِ يَرْجُونَ، وَلِلْآخِرَةِ يَسْعَوْنَ، وَلِلدُّنْيَا يُطَلِّقُونَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَا أَيُّهَا السَّالِكُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، وَيَا عُبَّادَ اللهِ الْمُغْتَرِّينَ بِطُولِ الْأَمَلِ، اعْلَمُوا أَنَّ الْأَنْفَاسَ مَعْدُودَةٌ، وَالْآجَالَ مَحْدُودَةٌ، وَأَنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي هَذِهِ الدَّارِ كَرَكْبٍ اسْتَظَلُّوا تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحُوا وَتَرَكُوهَا.

إِنَّ حَقِيقَةَ الْغُرْبَةِ لَيْسَتْ فِي بُعْدِ الدَّارِ عَنِ الدَّارِ، وَلَا فِي نَزِيحِ فَارَقَ الْأَوْطَانَ وَالْأَمْصَارَ، وَلَكِنَّ الْغُرْبَةَ الْحَقَّ هِيَ غُرْبَةُ مَنْ وَسَدَ التُّرَابَ، وَانْقَطَعَ عَنْهُ الْأَسْبَابُ، وَقَدِمَ عَلَى مَلِكٍ دَيَّانٍ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

تَأَمَّلُوا -يَرْحَمُكُمُ اللهُ- فِي سُرْعَةِ انْقِضَاءِ الْأَعْمَارِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وَيَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ مُنَبِّهًا عَلَى قِصَرِ الْمُكْثِ: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣].

فَهَلْ يَلِيقُ بِعَاقِلٍ أَنْ يَبْنِيَ قُصُورًا عَلَى جِسْرٍ يَعْبُرُهُ؟

أَمْ هَلْ يَحْسُنُ بِمُسَافِرٍ أَنْ يَثْقُلَ بِالْأَحْمَالِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الرَّحِيلَ بَغْتَةٌ؟

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَمِّقُ هَذَا الْمَعْنَى فِي النُّفُوسِ حِينَ قَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح].

إِنَّ الْخَوْفَ كُلَّ الْخَوْفِ لَيْسَ مِنَ الْمَوْتِ، فَالْمَوْتُ بَابٌ كُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ، وَلَكِنَّ الْخَوْفَ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَمِنْ هُجُومِ الْمَنِيَّةِ وَالْعَبْدُ فِي سَكْرَةِ الْغَفْلَةِ.

يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ وَالشَّهَوَاتِ تَخْذُلُ صَاحِبَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ**» [البداية والنهاية]، فَمَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ الصَّالِحُونَ يَرْتَجِفُونَ مِنَ الْقُصُورِ فِي حَقِّ اللهِ، فَهَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ: **أَتَبْكِي مِنَ الذُّنُوبِ؟** فَأَخَذَ تِبْنَةً مِنَ الْأَرْضِ وَقَالَ: «**لَلذُّنُوبُ أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ هَذِهِ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ**».

وَمَا قَصِيدَةُ "**لَيْسَ الْغَرِيبُ**"، الَّتِي نُسِبَتْ لِلْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، إِلَّا مَدْرَسَةٌ لِتَرْقِيقِ الْقُلُوبِ، وَمِحْرَابٌ لِلْبُكَاءِ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي جَنْبِ اللهِ.

إِنَّهَا تُصَوِّرُ لَكَ مَشْهَدَكَ وَأَنْتَ عَلَى مَغْسَلِ الْمَوْتَى، حِينَ يُجَرِّدُونَكَ مِنْ ثِيَابِكَ الَّتِي تَبَاهَيْتَ بِهَا، وَيَغْسِلُونَكَ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَأَنْتَ جُثَّةٌ هَامِدَةٌ لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

تَـذْكُرُكَ بِأَنَّـكَ سَـتُحْمَلُ عَلَـى الْأَكْتَـافِ فِـي جَنَـازَةٍ يُسْـرِعُ بِهَـا الْمُشَـيِّعُونَ لِيُـوَارُوكَ التُّـرَابَ، ثُـمَّ يَنْصَـرِفُونَ عَنْـكَ إِلَـى دُنْيَـاهُمْ، وَيَتَقَاسَـمُونَ مَالَـكَ، وَتَبْقَـى أَنْـتَ فَرِيـدًا وَحِيـدًا فِـي ظُلْمَـةِ اللَّحْـدِ، لَا أَنِيسَ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسَافِرُ بِلَا زَادٍ، وَيَا مَنْ غَرَّهُ طُولُ السَّلَامَةِ، تَدَبَّرْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. لَقَدْ حَادَ عَنْهُ الْمُلُوكُ فِي قُصُورِهِمْ، وَالْجَبَابِرَةُ فِي حُصُونِهِمْ، فَمَا نَفَعَهُمْ مَالٌ وَلَا وَلَدٌ.

وَإِنَّمَا الْفَوْزُ كُلُّ الْفَوْزِ فِي إِحْسَانِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ، وَتَعْلِيقِ الْقَلْبِ بِالْآخِرَةِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: «مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، قِيلَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى وَمَحَبَّتُهُ».

إِنَّنَا فِي هَذَا الشَّرْحِ لَا نُرِيدُ فَقَطْ تَفْكِيكَ أَلْفَاظِ الْقَصِيدَةِ، بَلْ نُرِيدُ أَنْ نَجْعَلَهَا مَحَطَّةً لِلْإِنَابَةِ. فَمَنْ كَانَ يَرْجُو حُسْنَ الْخَاتِمَةِ، فَلْيَحْذَرْ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ مِنَ الْهَوَى وَالشَّيْطَانِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ

تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فَالسَّيْرُ إِلَى اللهِ يَكُونُ بِجَنَاحَيِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، خَوْفٍ يَزْجُرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَرَجَاءٍ يَدْفَعُ إِلَى الطَّاعَاتِ.

وَقَدْ كَتَبْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ المُخْتَصَرَةَ الَّتِي أَسْمَيْتُهَا: [أُنْسَ الغَرِيبِ بِ شَرْحِ قَصِيدَةِ لَيْسَ الغَرِيبُ]، وَقَدْ كَانَتْ فِي أَصْلِهَا عِبَارَةً عَنْ دَرْسٍ تَذَاكَرْتُهُ مَعَ إِخْوَانِي، ثُمَّ قُمْتُ بِتَفْرِيغِهِ وَأَضَفْتُ إِلَيْهِ إِضَافَاتٍ نَافِعَةً؛ فَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ صَوَابٍ فَمِنَ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ خَطَأٍ أَوْ زَلَلٍ فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ.

فَاللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، وَارْحَمْ فِي الدُّنْيَا غُرْبَتَنَا، وَعِنْدَ الْمَوْتِ صَرْعَتَنَا، وَفِي الْقُبُورِ وَحْشَتَنَا، وَبَيْنَ يَدَيْكَ قِيَامَنَا.

اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِالصَّالِحَاتِ أَعْمَالَنَا، وَاجْعَلْ آخِرَ كَلَامِنَا مِنَ الدُّنْيَا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، عَلَيْهَا نَحْيَا، وَعَلَيْهَا نَمُوتُ، وَعَلَيْهَا نُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ.

كتبه الفقير إلى عفو ربه:

أبو زكريا بشير بن فيصل بن يحيى بن غالب الجعشني الإبي

غفر الله له ولوالديه وسائر المسلمين آمين

مسجد أهل السنة والجماعة - جامع الرحمن - شحن - المهرة حرسها الله

ليلة الخميس / ٢٧ / ذو القعدة / ١٤٤٧ هـ

ترجمة الناظم

تَرْجَمَةُ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الملقب بـ: (زَيْنِ الْعَابِدِينَ)

أَوَّلًا: نسبه ومولده:

هُوَ الْإِمَامُ الْقُدْوَةُ، السَّيِّدُ، الْهَاشِمِيُّ، عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ. أَبُو الْحَسَنِ الْقُرَشِيُّ، الْمَدَنِيُّ، الْمَعْرُوفُ بِـ "**زَيْنِ الْعَابِدِينَ**".

مولده: وُلِدَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ (٣٨ هـ)، وَقِيلَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ جَدِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

أُمُّهُ هِيَ: "**شَاهْ زَنَانُ**" بِنْتُ يَزْدَجِرْدَ مَلِكِ الْأَكَاسِرَةِ.

ثَانِيًا: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى حِفْظِهِ وَإِمَامَتِهِ:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "مَا رَأَيْتُ قُرَشِيًّا كَانَ أَفْضَلَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ".

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ أَفْقَهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ".

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَلَا أَوْرَعَ مِنْهُ".

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "السِّيَرِ": "كَانَ لَهُ جَلَالَةٌ عَجِيبَةٌ، وَحُقَّ لَهُ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ أَهْلًا لِلْإِمَامَةِ الْعُظْمَى لِشَرَفِهِ وَسُؤْدَدِهِ وَعِلْمِهِ".

ثالثًا: صفاته الخُلقية وعبادته

تَمَيَّزَ مَسْلَكُهُ بِانْقِطَاعِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ عَظِيمِ شَأْنِهِ فِي ذَلِكَ:

خَشْيَتُهُ لِلَّهِ: كَانَ إِذَا شَرَعَ فِي الْوُضُوءِ اصْفَرَّ لَوْنُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الَّذِي يَعْتَادُكَ عِنْدَ الْوُضُوءِ؟ فَيَقُولُ: "**أَتَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ؟**".

صَلَاتُهُ: رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ حَتَّى مَاتَ، وَقَدْ سَقَطَ بَيْتُهُ وَهُوَ سَاجِدٌ فَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ.

صَدَقَةُ السِّرِّ: كَانَ يَحْمِلُ جِرَابَ الْخُبْزِ عَلَى ظَهْرِهِ بِاللَّيْلِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ، وَيَقُولُ: "**إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ**". فَلَمَّا مَاتَ وَغَسَّلُوهُ جَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى آثَارِ سَوَادٍ فِي ظَهْرِهِ، فَقَالُوا: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ: كَانَ يَحْمِلُ جُرُبَ الدَّقِيقِ لَيْلًا عَلَى ظَهْرِهِ يُعْطِيهَا فُقَرَاءَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

رَابِعًا: حلمه وتواضعه

نَقَلَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ رَجُلًا نَالَ مِنْهُ وَسَبَّهُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: "يَا فَتَى، **إِنَّ بَيْنَ أَيْدِينَا عَقَبَةً كَئُودًا، فَإِنْ نَجَوْتُ مِنْهَا فَمَا أُبَالِي بِمَا قُلْتَ، وَإِنْ لَمْ أَنْجُ فَأَنَا أَكْثَرُ مِمَّا قُلْتَ**".

فَانْخَجَلَ الرَّجُلُ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ.

خَامِسًا: وفاته

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ (٩٤ هـ)، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي نُعِتَتْ بِـ "**سَنَةِ الْفُقَهَاءِ**" لِعِظَمِ الرَّزِيَّةِ بِمَوْتِ أَعْلَامِ الْمَدِينَةِ فِيهَا. دُفِنَ فِي جَنَّةِ الْبَقِيعِ فِي الْقَبْرِ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ عَمُّهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الْمَرَاجِع

سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ: لِلْإِمَامِ شَمْسِ الدِّينِ الذَّهَبِيِّ، (طَبْعَةُ مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ)، الْمُجَلَّدُ: ٤/ ٣٨٦ - ٤٠١.

تَارِيخُ بَغْدَادَ: لِلْحَافِظِ الْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ، (طَبْعَةُ دَارِ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ) المجلد: ١٢/ ٢٢٩ - ٢٣١.

الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ: لِلْإِمَامِ ابْنِ كَثِيرٍ، (طَبْعَةُ دَارِ عَالَمِ الْكُتُبِ)، الْمُجَلَّدُ: ٩/ ١٠٣ - ١١٥.

الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى: لِابْنِ سَعْدٍ، (طَبْعَةُ دَارِ صَادِرٍ)، الْمُجَلَّدُ: ٥/ ٢١١ - ٢٢٢.

حِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الْأَصْفِيَاءِ: لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ، الْمُجَلَّدُ: ٣/ ١٣٣ - ١٤٧.

أقوال أهل العلم والمحققين في المنظومة

أَقْوَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمُحَقِّقِينَ فِي نِسْبَتِهَا:

١- الْقَوْلُ بِنِسْبَتِهَا لِلْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ (زَيْنِ الْعَابِدِينَ)

هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْأَشْهَرُ وَالْمُسْتَفِيضُ فِي كُتُبِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالْمَجَامِيعِ الزُّهْدِيَّةِ، وَيَسْتَنِدُ أَصْحَابُهُ إِلَى مُوَاءَمَةِ الْقَصِيدَةِ لِحَالِ الْإِمَامِ الَّذِي عُرِفَ بِـ "السَّجَّادِ" لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ وَبُكَائِهِ.

نُزْهَةُ الْجَلِيسِ وَمُنْيَةُ الْأَنِيسِ: لِلسَّيِّدِ عَبَّاسِ بْنِ عَلِيٍّ الْمُوسَوِيِّ (ت: ١١٨٠هـ)، ج١، ص ١٠٤. أَوْرَدَهَا كَامِلَةً وَنَسَبَهَا لِلْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ.

دِيوَانُ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ: جَمْعُ وَتَحْقِيقُ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَيِّدِ الْأَهْلِ، ص ٤٥. ذَكَرَهَا كَوَاحِدَةٍ مِنْ قَصَائِدِهِ الرَّقَائِقِيَّةِ.

أَدَبُ الطَّفِّ: لِلشَّيْخِ جَوَادٍ شُبَّرَ، ج١، ص ١٤٢. أَشَارَ إِلَى نِسْبَتِهَا لِلْإِمَامِ وَذَكَرَ تَأَثُّرَ النَّاسِ بِهَا.

٢- الْقَوْلُ بِضَعْفِ النِّسْبَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ "الْأُسْلُوبِيَّةِ"

يَرَى الْمُحَقِّقُونَ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ (الْمَدْرَسَةُ النَّقْدِيَّةُ) أَنَّ الْقَصِيدَةَ مَنْحُولَةٌ (أَيْ نُسِبَتْ لِلْإِمَامِ وَلَمْ يَقُلْهَا)، وَيَسُوقُونَ لِذَلِكَ أَدِلَّةً عِلْمِيَّةً:

الـرَّأْيُ: لُغَـةُ الْقَصِـيدَةِ "طَرِيَّـةٌ" وَسَـهْلَةٌ جِـدّاً، وَهِـيَ أَقْـرَبُ لِأُسْـلُوبِ الْقُـرُونِ الْمُتَـأَخِّرَةِ (مِثْـلِ الْقَـرْنِ السَّـادِسِ وَالسَّـابِعِ الْهِجْـرِيِّ وَمَـا بَعْـدَهُ)، بَيْنَمَـا شِـعْرُ الْقَـرْنِ الْأَوَّلِ (عَصْـرِ الْإِمَـامِ) يَمْتَـازُ بِالْجَزَالَـةِ وَالْقُـوَّةِ اللُّغَوِيَّـةِ الْمُخْتَلِفَـةِ. دِرَاسَـاتٌ فِـي الشِّـعْرِ الْأُمَـوِيِّ: د. نُـورِي حَمُـودِي الْقَيْسِـيُّ، ص ٢١٠ (حَيْـثُ يُشِـيرُ إِلَـى أَنَّ كَثِيـراً مِـنَ الْمَنْظُومَـاتِ الزُّهْدِيَّـةِ نُسِبَتْ لِآلِ الْبَيْتِ طَلَبـاً لِلْبَرَكَةِ وَتَأْثِيرِ الْوَعْظِ).

تَـرَاجِمُ الْأَعْـلَامِ: الزِّرِكْلِـيُّ فِـي كِتَابِـهِ "الْأَعْـلَامُ" (ج٤، ص ٢٧٧) عِنْـدَ تَرْجَمَتِـهِ لِـزَيْنِ الْعَابِـدِينَ، لَـمْ يَـذْكُرْ لَـهُ دِيوَانـاً شِـعْرِيّاً ثَابِتـاً، بَـلْ رَكَّـزَ عَلَـى عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ وَأَدْعِيَتِهِ (الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ).

٣. الْقَوْلُ بِنِسْبَتِهَا لِفُقَهَاءَ وَزُهَّادٍ مَجْهُولِينَ

يَعْتَقِـدُ بَعْـضُ الْبَـاحِثِينَ أَنَّهَـا قَصِـيدَةٌ "وَعْظِيَّـةٌ" جَـرَتْ عَلَـى أَلْسُـنِ الْعُبَّـادِ فِـي عُصُـورِ الِانْحِطَـاطِ أَوِ الْعُصُـورِ الْوُسْـطَى، ثُـمَّ نُسِـبَتْ لِلْإِمَـامِ لِشُـهْرَتِهِ بِالزُّهْـدِ. مَوْسُـوعَةُ الشُّـعَرَاءِ الصَّـعَالِيكِ: د. حَسَـنُ جَعْفَـرُ نُـورِ الـدِّينِ، ج٢، ص ١٨٨ (ذَكَـرَ فِـي سِـيَاقِ الْحَـدِيثِ عَـنْ شِـعْرِ الزُّهْـدِ أَنَّ هَـذِهِ الْقَصِـيدَةَ تَتَشَـابَهُ مَـعَ زُهْدِيَّـةِ أَبِـي الْعَتَاهِيَـةِ لَكِنَّهَـا أَكْثَـرُ لِيُونَـةً فِـي الْأَلْفَاظِ، مِمَّا يُضْعِفُ نِسْبَتَهَا لِلْعُصُورِ الْمُتَقَدِّمَةِ).

مُلَخَّصُ الْحُكْمِ الْعِلْمِيِّ:

يَتَّفِقُ الْمُحَقِّقُونَ الْمُعَاصِرُونَ (مِثْلُ مُحَقِّقِي الْمَكْتَبَةِ الشَّامِلَةِ وَعُلَمَاءِ الْحَدِيثِ كَالشَّيْخِ الْأَلْبَانِيِّ فِي تَعْلِيقَاتٍ عَامَّةٍ عَلَى الْمَوَاعِظِ) عَلَى أَنَّ:

"الْقَصِيدَةَ لَا يَصِحُّ سَنَدُهَا تَارِيخِيًّا لِلْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، لَكِنَّ مُحْتَوَاهَا حَقٌّ وَمَشْرُوعٌ، وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي بَابِ الرَّقَائِقِ وَالزُّهْدِ، وَنِسْبَتُهَا لِلْإِمَامِ هِيَ مِنْ بَابِ التَّسَامُحِ فِي نِسْبَةِ الْوَعْظِ لِمَنْ عُرِفَ بِهِ".

أبيات المنظومة

قال الناظم رحمه الله تعالى:

لَيْسَ الغَرِيبُ غَرِيبَ الشَّأمِ وَاليَمَنِ ۞ إِنَّ الغَرِيبَ غَرِيبُ اللَّحدِ وَالكَفَنِ

إِنَّ الغَرِيبَ لَهُ حَقٌّ لِغُرْبَتِهِ ۞ عَلَى الْمُقِيمِينَ فِي الأَوطَانِ وَالسَّكَنِ

سَفَرِي بَعِيدٌ وَزَادِي لَنْ يُبَلِّغَنِي ۞ وَقُوَّتِي ضَعُفَتْ وَالمَوْتُ يَطْلُبُنِي

وَلِي بَقَايَا ذُنُوبٍ لَسْتُ أَعْلَمُهَا ۞ اللهُ يَعْلَمُهَا فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ

مَا أَحْلَمَ اللهَ عَنِّي حَيْثُ أَمْهَلَنِي ۞ وَقَدْ تَمَادَيْتُ فِي ذَنْبِي وَيَسْتُرُنِي

تَمُرُّ سَاعَاتُ أَيَّامِي بِلَا نَدَمٍ ۞ وَلَا بُكَاءٍ وَلَا خَوْفٍ وَلَا حَزَنِ

أَنَا الَّذِي أُغْلِقُ الأَبْوَابَ مُجْتَهِداً ۞ عَلَى المَعَاصِي وَعَيْنُ اللهِ تَنْظُرُنِي

يَا زَلَّةً كُتِبَتْ فِي غَفْلَةٍ ذَهَبَتْ ۞ يَا حَسْرَةً بَقِيَتْ فِي القَلْبِ تُحْرِقُنِي

دَعْنِي أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْدِبُهَا ۞ وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالحَزَنِ

كَأَنَّنِي بَيْنَ تِلْكَ الأَهْلِ مُنْطَرِحًا ۞ عَلَى الفِرَاشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَلِّبُنِي

وَقَدْ تَجَمَّعَ حَوْلِي مَنْ يَنوحُ وَمَنْ ۞ يَبْكِي عَلَيَّ وَيَنْعَانِي وَيَنْدُبُنِي

وَقَدْ أَتَوْا بِطَبِيبٍ كَيْ يُعَالِجَنِي ۞ وَلَمْ أَرَ الطِّبَّ هَذَا اليَوْمَ يَنْفَعُنِي

وَاشْتَدَّ نَزْعِي وَصَارَ المَوْتُ يَجْذِبُهَا ۞ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلَا رِفْقٍ وَلَا هَوَنِ

وَاسْتَخْرَجَ الرُّوحَ مِنِّي فِي تَغَرْغُرِهَا ۞ وَصَارَ رِيقِي مَرِيراً حِينَ غَرْغَرَنِي

وَغَمَّضُونِي وَرَاحَ الكُلُّ وانْصَرَفُوا ۞ بَعْدَ الإِيَاسِ وَجَدُّوا فِي شِرَا الكَفَنِ

وَقَامَ مَنْ كَانَ حِبَّ النَّاسِ فِي عَجَلٍ ۞۞ نَحْوَ المُغَسِّلِ يَأْتِينِي يُغَسِّلُنِي

وَقَالَ يَا قَوْمِ نَبْغِي غَاسِلاً حَذِقًا ۞۞ حُرّاً أَدِيبًا أَرِيبًا عَارِفًا فَطِنِ

فَجَاءَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدَنِي ۞۞ مِنَ الثِّيَابِ وَأَعْرَانِي وَأَفْرَدَنِي

وَأَوْدَعُونِي عَلَى الأَلْوَاحِ مُنْطَرِحًا ۞۞ وَصَارَ فَوْقِي خَرِيرُ المَاءِ يَنْظِفُنِي

وَأَسْكَبَ المَاءَ مِنْ فَوْقِي وَغَسَّلَنِي ۞۞ غَسْلاً ثَلَاثًا وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ

وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا لَا كِمَامَ لَهَا ۞۞ وَصَارَ زَادِي حَنُوطِي حِينَ حَنَّطَنِي

وَأَخْرَجُونِي مِنَ الدُّنْيَا فَوَا أَسَفَا ۞۞ عَلَى رَحِيلٍ بِلَا زَادٍ يُبَلِّغُنِي

وَحَمَّلُونِي عَلَى الأَكْتَافِ أَرْبَعَةٌ ۞۞ مِنَ الرِّجَالِ وَخَلْفِي مَنْ يُشَيِّعُنِي

وَقَدَّمُونِي إِلَى المِحْرَابِ وَانْصَرَفُوا ۞۞ خَلْفَ الإِمَامِ فَصَلَّى ثُمَّ وَدَّعَنِي

صَلَّوْا عَلَيَّ صَلَاةً لَا رُكُوعَ لَهَا ۞۞ وَلَا سُجُودَ لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنِي

وَأَنْزَلُونِي إِلَى قَبْرِي عَلَى مَهَلٍ ۞۞ وَقَدَّمُوا وَاحِداً مِنْهُمْ يُلَحِّدُنِي

وَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي لِيَنْظُرَنِي ۞۞ وَأَسْبَلَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ أَغْرَقَنِي

فَقَامَ مُحْتَرِمًا بِالعَزْمِ مُشْتَمِلاً ۞۞ وَصَفَّفَ اللَّبْنَ مِنْ فَوْقِي وَفَارَقَنِي

وَقَالَ هُلُّوا عَلَيْهِ التُّرْبَ واغْتَنِمُوا ۞۞ حُسْنَ الثَّوَابِ مِنَ الرَّحْمَنِ ذِي المِنَنِ

فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ لَا أُمٌّ هُنَاكَ وَلَا ۞۞ أَبٌ شَفِيقٌ وَلَا أَخٌ يُؤَنِّسُنِي

فَرِيدٌ وَحِيدُ القَبْرِ، يَا أَسَفَا ۞۞ عَلَى الفِرَاقِ بِلَا عَمَلٍ يُزَوِّدُنِي

وَهَالَنِي صُورَةٌ فِي العَيْنِ إِذْ نَظَرَتْ ۞۞ مِنْ هَوْلِ مَطْلَعِ مَا قَدْ كَانَ أَذْهَلَنِي

مِنْ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ مَا أَقُولُ لَهُمْ ۞۞ قَدْ هَالَنِي أَمْرُهُمْ جِدّاً فَأَفْزَعَنِي

وَأَقْعَدُونِي وَجَدُّوا فِي سُؤَالِهِمُ ❁❁ مَالِي سِوَاكَ إِلَهِي مَنْ يُخَلِّصُنِي

فَامْنُنْ عَلَيَّ بِعَفْوٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي ❁❁ فَإِنَّنِي مُوثَقٌ بِالذَّنْبِ مُرْتَهَنِ

تَقَاسَمَ الأَهْلُ مَالِي بَعْدَمَا انْصَرَفُوا ❁❁ وَصَارَ وِزْرِي عَلَى ظَهْرِي فَأَثْقَلَنِي

فَلَا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ❁❁ وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهَا فِي الأَهْلِ وَالوَطَنِ

وَانْظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ❁❁ هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ القُطْنِ وَالكَفَنِ

خُذِ القَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا ❁❁ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا رَاحَةُ البَدَنِ

يَا زَارِعَ الخَيْرِ تَحْصُدْ بَعْدَهُ ثَمَراً ❁❁ يَا زَارِعَ الشَّرِّ مَوْقُوفٌ عَلَى الوَهَنِ

يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيَانِ وَاكْتَسِبِي ❁❁ فِعْلاً جَمِيلاً لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنِي

يَا نَفْسُ وَيْحَكِ تُوبِي وَاعْمَلِي حَسَنًا ❁❁ عَسَى تُجَازَيْنَ بَعْدَ المَوْتِ بِالحَسَنِ

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى المُخْتَارِ سَيِّدِنَا ❁❁ مَا وَضَّأَ البَرْقُ فِي شَأْمٍ وَفِي يَمَنِ

وَالحَمْدُ للهِ مُمْسِينَا وَمُصْبِحِنَا ❁❁ بِالخَيْرِ وَالعَفْوِ وَالإِحْسَانِ وَالمِنَنِ

مقدمة التعليق

الحمد لله رب العالمين وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﷺ أما بعد:

نتذاكر تِلْكَ الأَبْيَاتِ المَاتِعَةَ الَّتِي نُسِبَتْ لِـ: (**زَيْنِ العَابِدِينَ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بن أبي طالب**) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، فِيهَا وَعْظٌ وَتَذْكِيرٌ بِالمَوْتِ، وَحَالِ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، وَحَالِ المَيِّتِ قَبْلَ دُخُولِهِ إِلَى قَبْرِهِ.

وَهَذِهِ مَنْظُومَةٌ مَشْهُورَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

بيان حقيقة الغربة

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

لَـيْسَ الغَرِيـبُ غَرِيـبَ الشَّـامِ وَالـيَمَنِ ۞ إِنَّ الغَرِيـبَ غَرِيـبُ اللَّحْـدِ وَالكَفَـنِ

الشَّرْحُ:

يُقَرِّرُ فِي هَذَا البَيْتُ حَقِيقَةً شَرْعِيَّةً وَعِظِيَّةً؛ وَهِيَ أَنَّ الغُرْبَةَ الزَّمَانِيَّةَ أَوِ المَكَانِيَّةَ كَـ: السَّفَرِ إِلَى الشَّامِ أَوِ اليَمَنِ، هِيَ غُرْبَةٌ هَيِّنَةٌ، لِأَنَّ المَرْءَ فِيهَا يَكُونُ بَيْنَ الأَحْيَاءِ، وَيُمْكِنُهُ التَّوَاصُلُ مَعَ الخَلْقِ. أَمَّا "**الغُرْبَةُ الحَقِيقِيَّةُ**" عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ، فَهِيَ الِانْقِطَاعُ عَنِ الدُّنْيَا وَدُخُولُ القَبْرِ، حَيْثُ يُفَارِقُ الإِنْسَانُ كُلَّ أَنِيسٍ وَجَلِيسٍ، وَلَا يَبْقَى مَعَهُ إِلَّا عَمَلُهُ.

فَالمَقْصُودُ هُوَ حَثُّ النَّفْسِ عَلَى التَّزَوُّدِ لِلْآخِرَةِ، وَعَدَمِ الجَزَعِ مِنْ غُرْبَةِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ السَّفَرَ الحَقِيقِيَّ هُوَ السَّفَرُ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

يَرْتَبِطُ مَعْنَى هَذَا البَيْتِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِوَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَهِيَ أَصْلٌ فِي بَابِ الزُّهْدِ وَقِصَرِ الأَمَلِ:

عَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: «**إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا**

أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، "كِتَابُ الرِّقَاقِ"، "بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"، حَدِيثُ رَقْمِ (٦٤١٦).

بيان بعض من حقوق المسلمين فيما بينهم

قال الناظم رحمه الله تعالى:

إِنَّ الغَرِيـــبَ لَـــهُ حَـــقٌّ لِغُرْبَتِـــهِ ۞ عَلَـى المُقِيمِـينَ فِـي الأَوْطَـانِ وَالسَّـكَنِ

الشَّرْحُ:

يَنْتَقِلُ النَّاظِمُ هُنَا إِلَى مَقَامِ "الآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ" وَحُقُوقِ المُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ؛ فَيُقَرِّرُ أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي ابْتَعَدَ عَنْ وَطَنِهِ وَأَهْلِهِ (الغَرِيبَ) يَكُونُ فِي حَالَةٍ مِنَ الِانْكِسَارِ وَالحَاجَةِ إِلَى المُؤَانَسَةِ وَالمَعُونَةِ. وَمِنْ شِيَمِ أَهْلِ المُرُوءَةِ وَالإِيمَانِ أَنْ يَعْرِفُوا لِهَذَا الغَرِيبِ حَقَّهُ، بِإِكْرَامِ نُزُلِهِ، وَطَيِّبِ مَعَامَلَتِهِ، وَتَعْوِيضِهِ عَنْ فَقْدِ أَهْلِهِ بِمَوَدَّتِهِمْ، لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ الإِسْلَامِيَّةَ جَعَلَتِ "ابْنَ السَّبِيلِ" (وَهُوَ الغَرِيبُ المُنْقَطِعُ) أَحَدَ مَصَارِفِ الزَّكَاةِ الثَّمَانِيَةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ حَقِّهِ.

وَيَتَجَلَّى حَقُّ الغَرِيبِ وَالضَّيْفِ فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ، مِنْ أَجْمَعِهَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**». أَخْرَجَهُ الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، "كِتَابُ

الأَدَبِ"، "بَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ"، حَدِيثُ رَقْمِ (٦١٣٥)، وَأَخْرَجَهُ الإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، "كِتَابُ الإِيمَانِ"، حَدِيثُ رَقْمِ (٤٧).

طول السفر وقلة الزاد

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

سَـــفَرِي بَعِيـــدٌ وَزَادِي لَـــنْ يُبَلِّغَنِـــي ۞ وَقُـــوَّتِي ضَـــعُفَتْ وَالمَـــوْتُ يَطْلُبُنِـــي

الشَّرْحُ:

سَفَرِي بَعِيدٌ: يُشِيرُ النَّاظِمُ هُنَا إِلَى رِحْلَةِ الآخِرَةِ، وَهِيَ رِحْلَةٌ تَبْدَأُ مِنَ المَوْتِ، ثُمَّ القَبْرِ، ثُمَّ البَعْثِ وَالنُّشُورِ، ثُمَّ العَرْضِ وَالحِسَابِ؛ فَهِيَ طَوِيلَةٌ بِمَقَايِيسِ الزَّمَانِ وَالأَهْوَالِ.

قوله: وَزَادِي لَنْ يُبَلِّغَنِي:

"الزَّادُ" هُنَا هُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ سورة البقرة (١٩٧).

وَالمَعْنَى أَنَّ العَبْدَ مَهْمَا اجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ، فَإِنَّ عَمَلَهُ يَبْقَى قَلِيلاً فِي حَقِّ عَظَمَةِ اللهِ وَأَهْوَالِ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْجُو أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ.

قوله: وَقُوَّتِي ضَعُفَتْ وَالمَوْتُ يَطْلُبُنِي:

إِقْرَارٌ بِالعَجْزِ البَشَرِيِّ وَانْقِضَاءِ العُمُرِ، فَالإِنْسَانُ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ القُوَّةِ، فَإِنَّ المَوْتَ يُطَارِدُهُ وَلَا مَفَرَّ لَهُ مِنْهُ، ويُؤَكِّدُ هَذَا المَعْنَى أَنَّ النَّجَاةَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ العَمَلِ فَحَسْبُ، بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ مَعَ بَذْلِ الجُهْدِ، كَمَا جاء فِي حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**». قَالُوا: **وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ**؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**». أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، "كِتَابُ المَرْضَى"، "بَابُ تَمَنِّي المَرِيضِ المَوْتَ"، حَدِيثُ رَقْمِ (٥٦٧٣).

الاعتراف بالذنوب

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَلِـي بَقَايَـا ذُنُـوبٍ لَسْـتُ أَعْلَمُهَـا ۞ اللهُ يَعْلَمُهَـا فِـي السِّـرِّ وَالعَلَـنِ

الشَّرْحُ:

يَعْتَـرِفُ النَّـاظِمُ فِـي قَوْلِـهِ: **وَلِـي بَقَايَـا ذُنُـوبٍ لَسْـتُ أَعْلَمُهَـا** بِقُصُـورِ نَظَـرِهِ عَـنْ إِحْصَـاءِ مَعَاصِيهِ، وهـذا هـو حـال الجميـع، وَهَـذَا يَتَّسِقُ مَعَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿**أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ**﴾ [المُجَادَلَة: ٦].

فَالإِنْسَـانُ قَـدْ يَنْسَـى الـذَّنْبَ لِحَقَارَتِـهِ عِنْـدَهُ، لَكِنَّـهُ عِنْـدَ اللهِ مَكْتُـوبٌ. وَقَـدْ حَـذَّرَ النَّبِـيُّ ﷺ مِـنْ هَـذَا المَعْنَـى فِـي فقـال: «**إِيَّـاكُمْ وَمُحَقَّـرَاتِ الـذُّنُوبِ، فَإِنَّمَـا مَثَـلُ مُحَقَّـرَاتِ الـذُّنُوبِ كَقَـوْمٍ نَزَلُـوا فِـي بَطْـنِ وَادٍ، فَجَـاءَ ذَا بِعُـودٍ، وَجَـاءَ ذَا بِعُـودٍ حَتَّـى أَنْضَـجُوا خُبْـزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّـرَاتِ الـذُّنُوبِ مَتَـى يُؤْخَـذْ بِهَـا صَـاحِبُهَا تُهْلِكْـهُ**» أَخْرَجَـهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: ٢٢٣٠٢، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ.

يَقُولُ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَ الذُّنُوبِ، وَلَا يَعْرِفُونَ أَنَّ العَبْدَ قَدْ يَعْمَلُ الذَّنْبَ لَا يُلْقِي لَهُ بَالاً يَكُونُ فِيهِ هَلَاكُهُ". "مَدَارِجُ السَّالِكِينَ" (١/ ١٨٩).

قَوْلِهِ: اللهُ يَعْلَمُهَا فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ:

مُؤَكِّدًا عَقِيدَةَ "مُرَاقَبَةِ اللهِ"، فَهُوَ سُبْحَانَهُ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غَافِرٍ: ١٩].

وَلِذَا كَانَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَسْتَغْفِرَ مِنَ الذُّنُوبِ كَافَّةً، مَا عَلِمَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْ، كَمَا ثَبَتَ فِي دُعَائِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ: دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ» [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٤٨٣].

وَيُعَلِّقُ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَلَى دِقَّةِ هَذِهِ المُحَاسَبَةِ بِقَوْلِهِ: "إِنَّمَا كَانَ ﷺ يَسْتَغْفِرُ مِمَّا لَا يَعْلَمُ لِيُعَلِّمَ أُمَّتَهُ الِاحْتِرَازَ مِنْ تَبِعَاتِ مَا قَدْ يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى".

"فَتْحِ البَارِي" (١١/ ١٨٤).

ستر الله وعفوه عن عبده

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

مَـا أَحْلَـمَ اللهَ عَنِّـي حَيْـثُ أَمْهَلَنِـي ۞ وَقَـدْ تَمَادَيْـتُ فِـي ذَنْبِـي وَيَسْـتُرُنِي

الشَّرْحُ:

يَسْتَهِلُّ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ بِالتَّعَجُّبِ مِنْ حِلْمِ الخَالِقِ فِي قَوْلِهِ: **مَا أَحْلَمَ اللهَ عَنِّي حَيْثُ أَمْهَلَنِي:**

وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّعْظِيمِ؛ فَالحَلِيمُ سُبْحَانَهُ وتعالى هُوَ الَّذِي لَا يَعْجَلُ بِالعُقُوبَةِ عَلَى عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النَّحْلِ: ٦١].

قَوْلِهِ: وَقَدْ تَمَادَيْتُ فِي ذَنْبِي وَيَسْتُرُنِي:

فَرَغْمَ الِاسْتِمْرَارِ فِي المَعْصِيَةِ، يَظَلُّ سِتْرُ اللهِ مُسْبَلاً عَلَيْهِ. وَهَذَا يوافق مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ عَنْ سِتْرِ اللهِ لِلْمُؤْمِنِ، كَمَا جاء فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُدْنَى المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ:**

هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ» [أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٢٤٤١].

وَيَقُولُ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "نُونِيَّتِهِ" مُوضِحًا مَعْنَى السَّتْرِ:

وَهُوَ السَّتِيرُ فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ ۞ عِنْدَ الجَهَارِ لَدَى ذَوِي الطُّغْيَانِ

لَكِنَّهُ يُلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ ۞ فَهُوَ السَّتِيرُ لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

الخُلَاصَةُ من هذا البيت:

البَيْتُ يُذَكِّرُ العَبْدَ بِأَنَّ إِمْهَالَ اللهِ لَيْسَ إِهْمَالاً، وَأَنَّ سَتْرَهُ لَيْسَ رِضًا عَنِ الذَّنْبِ، بَلْ هُوَ فُرْصَةٌ لِلتَّوْبَةِ وَالأَوْبَةِ.

فَالكَرِيمُ يَسْتَحِي أَنْ يَعْصِيَ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: **"يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ"**. فَالحِلْمُ يَقْتَضِي الشُّكْرَ، وَالسَّتْرُ يَقْتَضِي الاِسْتِغْفَارَ.

سرعة مرور العمر وغفلة العبد عن ذلك

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

تَمُرُّ سَاعَاتِ أَيَّامِي بِلَا نَدَمٍ ۞ وَلَا بُكَاءٍ وَلَا خَوْفٍ وَلَا حُزْنِ

هَذَا البَيْتُ يَنْعَى فِيهِ الناظم حَالَ "قَسَاوَةِ القَلْبِ" وَغَفْلَتِهِ عَنْ دَارِ البَقَاءِ، وَهُوَ مَقَامٌ يُحَذِّرُ مِنْهُ أَهْلُ العِلْمِ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ؛ لِأَنَّ جُمُودَ العَيْنِ وَعَدَمَ النَّدَمِ عَلَى الذَّنْبِ مِنْ عَلَامَاتِ الشَّقَاءِ.

الشَّرْحُ: ۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

يَصِفُ الناظم حَالاً مِنَ الغَفْلَةِ الشَّدِيدَةِ فِي قَوْلِهِ: **تَمُرُّ سَاعَاتُ أَيَّامِي بِلَا نَدَمٍ**:

حَيْثُ يَضِيعُ العُمُرُ الَّذِي هُوَ رَأْسُ مَالِ العَبْدِ دُونَ أَنْ يَتَحَسَّرَ عَلَى مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللهِ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى مُحَذِّرًا مِنْ هَذِهِ الغَفْلَةِ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأَنْبِيَاءِ: ١].

وَيُعَلِّقُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى قِيمَةِ الزَّمَنِ بِقَوْلِهِ: "يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، فَإِذَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ" [حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ: ٢/ ١٤٨].

ثُمَّ يُبَيِّنُ فَقْدَانَ التَّأَثُّرِ القَلْبِيِّ فِي قَوْلِهِ: **وَلَا بُكَاءٍ وَلَا خَوْفٍ وَلَا حَزَنِ**:

وَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَى قَسْوَةِ القَلْبِ الَّتِي ذَمَّهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]. فَقَدْ كَانَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ البُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ» [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ، رَقْمُ: ١٦٣٩، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ].

يَقُولُ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: "مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ، وَمِنْ عَلَامَاتِ صِحَّةِ القَلْبِ أَنْ يَتَحَسَّرَ عَلَى فَوْتِ طَاعَتِهِ وَضِيَاعِ وَقْتِهِ". "إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ" (١/ ٣٣).

فَفَقْدُ الحُزْنِ عَلَى الذَّنْبِ أَوْ خَوْفِ العَاقِبَةِ يُعَدُّ مَوْتًا لِلْقَلْبِ، لِأَنَّ الحَيَّ يَتَأَلَّمُ لِلْجُرْحِ، أَمَّا المَيِّتُ فَلَا، كَمَا قِيلَ: "مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ".

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ صَرْخَةُ تَنْبِيهٍ لِلْقُلُوبِ الغَافِلَةِ الَّتِي تَرَى الأَيَّامَ تَنْقَضِي وَالقُبُورَ تَدْنُو دُونَ أَنْ يُحَرِّكَ ذَلِكَ فِيهَا سَاكِنًا.

فَالنَّدَمُ تَوْبَةٌ، وَالبُكَاءُ طَهُورٌ، وَالخَوْفُ زَاجِرٌ، وَمَنْ فَقَدَهَا فَقَدْ فَقَدَ مَحَرِّكَاتِ السَّيْرِ إِلَى اللهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَفْزَعَ إِلَى رَبِّهِ لِيُحْيِيَ قَلْبَهُ.

الخلوة بالمعاصي

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

أَنَــا الَّــذِي أُغْلِــقُ الأَبْــوَابَ مُجْتَهِــدًا ۞ عَلَــى المَعَاصِــي وَعَــيْنُ اللهِ تَنْظُرُنِــي

هَذَا البَيْتُ يَنْكَأُ جُرْحًا غَائِرًا فِي النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، وَهُوَ مَقَامُ "ذُنُوبِ الخَلَوَاتِ"، وَفِيهِ تَصْوِيرٌ بَلِيغٌ لِحَالِ مَنْ يَسْتَخْفِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفِي مِنَ اللهِ، وَإِلَيْكَ الشَّرْحُ العِلْمِيُّ المُتَدَاخِلُ مَعَ الأَدِلَّةِ وَأَقْوَالِ أَهْلِ العِلْمِ:

الشَّرْحُ:

قَوْلِهِ: أَنَا الَّذِي أُغْلِقُ الأَبْوَابَ مُجْتَهِداً عَلَى المَعَاصِي:

وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى بَذْلِ الجُهْدِ فِي التَّسَتُّرِ عَنِ المَخْلُوقِينَ، حَيَاءً مِنْهُمْ أَوْ خَوْفًا مِنْ سُقُوطِ المَنْزِلَةِ فِي أَعْيُنِهِمْ.

وَهَذَا الحَالُ ذَمَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٠٨].

ثُمَّ يَأْتِي الِانْكِسَارُ فِي قَوْلِهِ: وَعَيْنُ اللهِ تَنْظُرُنِي: وَهُوَ إِقْرَارٌ بِصِفَةِ "الرَّقِيبِ" وَ "البَصِيرِ". وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ هَذَا التَّهَاوُنِ بِنَظَرِ الخَالِقِ فِي الخَلَوَاتِ، فَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا» [أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ، رَقْمُ: ٤٢٤٥، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

يَقُولُ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: "أَجْمَعَ العَارِفُونَ بِاللهِ أَنَّ ذُنُوبَ الخَلَوَاتِ هِيَ أَصْلُ الِانْتِكَاسَاتِ، وَأَنَّ عِبَادَاتِ الخَفَاءِ هِيَ أَعْظَمُ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ". "مَدَارِجُ السَّالِكِينَ" (٢/ ٧١).

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ: "لَا تَجْعَلِ اللهَ أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ".

وَيُعَلِّقُ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: بِقَوْلِهِ: "إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ حَيْثُ كَانَ، فَالخَوْفُ الحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللهِ إِذَا خَلَا بِهَا". "خَشْيَةُ اللهِ" (ص: ٤٥)

والاعتراف بالذنب فضيلة ولذلك قال القحطانيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي نُونِيَّتِهِ:

وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ۞ لَأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي

وَلَأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي ۞ وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهَوَانِ

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ تَوْبِيخٌ لِلنَّفْسِ الَّتِي تَسْتَحِي مِنَ العَبِيدِ وَتَجْتَرِئُ عَلَى المَلِكِ المَعْبُودِ.

وَعِلَاجُ هَذِهِ الآفَةِ يَكُونُ بِتَحْقِيقِ مَقَامِ "**الإِحْسَانِ**"؛ وَهُوَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٨].

فَمَنِ اسْتَحْضَرَ نَظَرَ اللهِ إِلَيْهِ فِي السِّرِّ، اسْتَحْيَا أَنْ يَرَاهُ اللهُ حَيْثُ نَهَاهُ.

التحسر على التفريط في طاعة اللّه

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

يَـا زَلَّـةً كُتِبَـتْ يَـا غَفْلَـةً ذَهَبَـتْ ۞ يَا حَسْرَةً بَقِيَتْ فِي القَلْبِ تُحْرِقُنِي

هَـذَا البَيْتُ يُصَـوِّرُ مَقَـامَ "التَّحَسُّرِ وَالتَّـوَدُّدِ"، وَهُـوَ أَثَـرُ الـذَّنْبِ فِي نَفْـسِ المُـؤْمِنِ الصَّـادِقِ الَّـذِي لَا يَـزَالُ قَلْبُـهُ حَيًّـا؛ فَالـذَّنْبُ يَمْضِـي وَلَذَّتُهُ تَزُولُ، لَكِنَّ تَبِعَتَهُ وَمَرَارَتَهُ تَبْقَى.

الشَّرْحُ:

قَوْلِهِ: يَا زَلَّةً كُتِبَتْ فِي غَفْلَةٍ ذَهَبَتْ:

وَ "الزَّلَّـةُ" هِـيَ: الخَطِيئَـةُ، وَوَصَـفَهَا بِأَنَّهَـا كُتِبَـتْ تَأْكِيـدًا لِعَمَـلِ الحَفَظَـةِ الكِـرَامِ الَّـذِينَ لَا يَتْرُكُـونَ صَـغِيرَةً وَلَا كَبِيـرَةً، كَمَـا قَـالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وَقَوْلُهُ: "فِي غَفْلَةٍ ذَهَبَتْ":

يُشِـيرُ إِلَـى سُـرْعَةِ انْقِضَـاءِ زَمَـنِ المَعْصِـيَةِ وَلَـذَّتِهَا، وَبَقَـاءِ وِزْرِهَـا، وَهُـوَ مَـا حَـذَّرَ مِنْـهُ النَّبِـيُّ ﷺ فِي حَـدِيثِ صِـبْغَةِ أَهْـلِ النَّـارِ: «فَيُصْـبَغُ فِي النَّـارِ صَـبْغَةً، ثُـمَّ يُقَـالُ: يَـا ابْـنَ آدَمَ هَـلْ رَأَيْـتَ خَيْـرًا قَـطُّ؟ هَـلْ مَـرَّ

بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ» [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٢٨٠٧].

ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى وَصْفِ الأَلَمِ القَلْبِيِّ

فيقول: يَا حَسْرَةً بَقِيَتْ فِي القَلْبِ تُحْرِقُنِي:

وَهَذِهِ الحَسْرَةُ هِيَ لُبُّ التَّوْبَةِ، لِأَنَّ "النَّدَمَ تَوْبَةٌ" كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» [أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ، رَقْمُ: ٤٢٥٢، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ]. وهو من شروط التوبة.

وَهَذِهِ "**الحُرْقَةُ**" دَلِيلُ إِيمَانٍ؛ لِأَنَّ المُنَافِقَ لَا يَتَأَثَّرُ بِذَنْبِهِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا**» [أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٦٣٠٨].

وَيَقُولُ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: "لَا تَتِمُّ التَّوْبَةُ إِلَّا بِتَحَرُّقِ القَلْبِ مِنَ النَّدَمِ، فَإِذَا كَانَ القَلْبُ خَالِيًا مِنْ جَمْرَةِ الحَسْرَةِ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ تَكُونُ بَارِدَةً لَا قُوَّةَ فِيهَا". "مَدَارِجُ السَّالِكِينَ" (١/ ١٩٣).

وَيُعَلِّقُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: بِقَوْلِهِ: "الآلَامُ الَّتِي تَعْقُبُ الذُّنُوبَ فِي القَلْبِ هِيَ مِنْ تَمْحِيصِ اللهِ لِعَبْدِهِ، وَمِنْ

رَحْمَةِ اللهِ أَنْ يَجْعَلَ فِي قَلْبِ العَبْدِ زَاجِرًا مِنَ النَّدَمِ يَرُدُّهُ إِلَى الطَّاعَةِ". "مَجْمُوعِ الفَتَاوَى" (١٠/ ٣٢٣).

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يُلَخِّصُ حَالَ التَّائِبِ الصَّادِقِ الَّذِي اسْتَصْغَرَ المَعْصِيَةَ يَوْمَ وَقَعَ فِيهَا، ثُمَّ اسْتَعْظَمَهَا يَوْمَ أَفَاقَ مِنْ غَفْلَتِهِ.

وَهَذِهِ الحَسْرَةُ "المُحْرِقَةُ" هِيَ الَّتِي تَبْرَأُ بِهَا النَّفْسُ مِنْ أَوْضَارِ الخَطَايَا، فَإِذَا صَدَقَ النَّدَمُ، انْقَلَبَتِ الحَسْرَةُ إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ بِعَفْوِ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفُرْقَانِ: ٧٠].

محاسبة النفس على رقابة اللّه تعالى

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

دَعْنِي أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْدُبُهَا ۞ وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالحُزْنِ

هَذَا البَيْتُ يُمَثِّلُ مَقَامَ "المُحَاسَبَةِ وَالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ"، وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنِ النَّدَمِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَدْفَعُ العَبْدَ لِلِاشْتِغَالِ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَالبُكَاءِ عَلَى تفريطه.

الشَّرْحُ:

يَطْلُبُ النَّاظِمُ فِي قَوْلِهِ: **دَعْنِي أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْدِبُهَا:**

أَنْ يُتْرَكَ لِخَلْوَتِهِ مَعَ رَبِّهِ، حَيْثُ يُقَلِّبُ صَفَحَاتِ عُمُرِهِ بِالبُكَاءِ وَالخَشْيَةِ، وَلَيْسَ المَقْصُودُ هُنَا **" بكاء النِّيَاحَةَ"** المُحَرَّم بِمَعْنَى السَّخَطِ عَلَى القَدَرِ، بَلْ هِيَ **"بكاء التَّذَلُّلِ"** وَالبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**» [أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٦٤٨٥].

يَقُولُ العَلَّامَةُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِنَّمَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَبْكِيَ عَلَى نَفْسِهِ مَا دَامَ فِي فُسْحَةٍ مِنَ العُمُرِ، فَإِنَّ المَوْتَ إِذَا نَزَلَ انْقَطَعَ العَمَلُ، وَبَقِيَ الوَجَلُ". "صَيْدُ الخَاطِرِ" (ص: ٢٣٦).

ثُمَّ يُبَيِّنُ عَزْمَهُ عَلَى هَذَا الحَالِ فِي قَوْلِهِ: وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالحَزَنِ:

أَيْ: يَجْعَلُ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ ذِكْراً لِلْآخِرَةِ وَحُزْناً عَلَى التَّقْصِيرِ.

وَهَذَا الحُزْنُ مَمْدُوحٌ إِذَا دَفَعَ لِلْعَمَلِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ المُؤْمِنِينَ: ﴿تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٩٢].

يقول شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: بِقَوْلِهِ: "الحُزْنُ لَا يُرَادُ لِذَاتِهِ، بَلْ لِمَا يَعْقُبُهُ مِنَ الإِنَابَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ، فَإِذَا حَزِنَ العَبْدُ عَلَى ذَنْبِهِ حُزْناً يُثْمِرُ تَوْبَةً صَادِقَةً، كَانَ ذَلِكَ مِنْ خَيْرِ أَعْمَالِهِ". "مَجْمُوعِ الفَتَاوَى" (١٠/ ٦٠٧).

قال الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِذَا رَأَيْتَ قَسَاوَةً فِي قَلْبِكَ، فَانْدِبْ خَطِيئَتَكَ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ" [حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ: ٨/ ٩١].

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ۞ وَيُورِثُ الذُّلَّ مُدْمِنُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ۞ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا المُلُوكُ ۞ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

الداء والدواء لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (٤٨)، حلية الأولياء ٨/ ١٦٦.

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ دَعْوَةٌ لِلِانْكِفَاءِ عَلَى الذَّاتِ بِالإِصْلَاحِ، فَمَنْ لَمْ يَبْكِ عَلَى نَفْسِهِ فَمَنْ يَبْكِي عَلَيْهِ؟

وَالِاشْتِغَالُ بِـ "الحَزَنِ المُثْمِرِ" فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنَ الحَسْرَةِ فِي الآخِرَةِ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ، وَوَسِعَهُ بَيْتُهُ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» [أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الجَامِعِ، رَقْمُ: ٣٩١١].

حالة الاحتضار

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

كَـأَنَّنِي بَـيْنَ تِلْـكَ الأَهْـلِ مُنْطَـرِحٌ ۞ مُنْطَرِحًـا عَلَـى الفِـرَاشِ وَأَيْـدِيهِمْ تُقَلِّبُنِـي

هَـذَا البَيْـتُ يَنْقُـلُ المَشْـهَدَ مِـنْ مَقَـامِ التَّوْبَـةِ وَالنَّـدَمِ إِلَـى مَقَـامِ "الِاحْتِضَـارِ وَمُعَايَنَـةِ المَـوْتِ"، وَهُـوَ تَصْـوِيرٌ حَـيٌّ لِلَحَظَـاتِ الَّتِـي يَنْقَطِـعُ فِيهَـا رَجَـاءُ المَـرْءِ مِـنَ الحَيَـاةِ، وَإِلَيْـكَ الشَّـرْحُ العِلْمِـيُّ المُتَدَاخِلُ مَعَ الأَدِلَّةِ وَأَقْوَالِ أَهْلِ العِلْمِ:

الشَّرْحُ:

يَسْتَحْضِرُ الناظم فِي قَوْلِهِ: **كَأَنَّنِي بَيْنَ تِلْكَ الأَهْلِ مُنْطَرِحًا**:

حَالَ **"الغَرْغَرَةِ"** وَسِيَاقِ المَوْتِ، حَيْثُ يَكُونُ العَبْدُ طَرِيحَ الفِرَاشِ، قَدْ خَارَتْ قُوَاهُ وَتَحَلَّقَ حَوْلَهُ أَهْلُهُ وَأَحِبَّتُهُ، وَهَذَا المَشْهَدُ ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ**﴾ [الوَاقِعَة: ٨٣-٨٤].

ثُمَّ يَصِفُ العَجْزَ التَّامَّ فِي قَوْلِهِ: **عَلَى الفِرَاشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَلِّبُنِي**:

فَبَعْدَ أَنْ كَانَ الإِنْسَانُ قَوِيًّا يَتَصَرَّفُ فِي شُؤُونِهِ، أَصْبَحَ جَسَداً بِلَا حَرَاكٍ، يُقَلِّبُهُ أَهْلُهُ يَمِينًا وَشِمَالًا لِتَخْفِيفِ آلَامِهِ أَوْ لِمُعَالَجَةِ سَكَرَاتِهِ.

وَهَذَا الحَالُ تَنْبِيهٌ لِأَهْلِ الصِّحَّةِ وَالقُوَّةِ بِأَنَّ مَصِيرَهُمْ هَذَا الضَّعْفُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ: المَوْتِ» [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: ٢٣٠٧، وَالنَّسَائِيُّ: ١٨٢٤، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

وَيَقُولُ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَوْ عَلِمَ الإِنْسَانُ هَوْلَ مَا يُعَانِيهِ المُحْتَضَرُ مِنْ سَكَرَاتِ المَوْتِ وَتَقْلِيبِ الأَهْلِ لَهُ وَهُوَ لَا يَمْلِكُ دَفْعًا وَلَا نَفْعًا، لَمَا طَابَ لَهُ فِي الدُّنْيَا عَيْشٌ، وَلَاشْتَغَلَ بِإِصْلَاحِ خَاتِمَتِهِ".

"التَّذْكِرَةِ" (ص: ٢١).

قال الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذِكْرُ المَوْتِ يُورِثُ لِينًا فِي القَلْبِ، وَاسْتِحْضَارُ لَحْظَةِ الفِرَاقِ وَرُؤْيَةِ الأَهْلِ وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ فِعْلِ شَيْءٍ لِلْمَيِّتِ هُوَ أَبْلَغُ المَوَاعِظِ". "جَامِعِ العُلُومِ وَالحِكَمِ" (٢/ ٣٨٤).

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ تَرْهِيبٌ مِنَ الرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا، وَتَذْكِيرٌ بِلَحْظَةِ "الِانْكِسَارِ الكَبِيرِ" عِنْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ.

فَمَنْ صَوَّرَ نَفْسَهُ مَكَانَ ذَلِكَ المُرْتَمِي عَلَى الفِرَاشِ، سَارَعَ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الحُلْقُومَ فَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**» [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، رَقْمُ: ٣٥٣٧، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ].

حالة الأهل عند الفراق

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَقَدْ تَجَمَّعَ حَوْلِي مَنْ يَنوحُ وَمَنْ ۞ يَبْكِي عَلَيَّ وَيَنْعَانِي وَيَنْدُبُنِي

هَذَا البَيْتُ يَسْتَكْمِلُ مَشْهَدَ "الاِحْتِضَارِ"، وَيُصَوِّرُ لَحْظَةَ الفِرَاقِ بَيْنَ المَيِّتِ وَأَهْلِهِ، حَيْثُ تَعْلُو أَصْوَاتُ الحُزْنِ وَتَنْفَصِمُ عُرَى الحَيَاةِ.

الشَّرْحُ:

يَصِفُ النَّاظِمُ حَالَ مَنْ حَضَرَهُ المَوْتُ فِي قَوْلِهِ: وَقَدْ تَجَمَّعَ حَوْلِي مَنْ يَنوحُ وَمَنْ يَبْكِي عَلَيَّ:

وَهَذَا الاِجْتِمَاعُ هُوَ المَعْهُودُ عِنْدَ نُزُولِ المَنِيَّةِ، حَيْثُ يَجْتَمِعُ الأَقَارِبُ لِلتَّوْدِيعِ.

وَقَدْ أَوْصَى الشَّرْعُ بِتَلْقِينِ المُحْتَضَرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الأخيرة، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٩١٦].

قَوْلُهُ: وَيَنْعَانِي وَيَنْدُبُنِي:

فَيُشِيرُ إِلَى رَدَّاتِ فِعْلِ الأَهْلِ بِذِكْرِ مَحَاسِنِ المَيِّتِ أَوْ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالعَوِيلِ. وَمِنْ مَنْظُورِ الشريعة الإسلامية، فَإِنَّ "**النَّعْيَ**" الَّذِي هُوَ

الإِخْبَارُ بِالمَوْتِ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ مُبَاحٌ، أَمَّا "النَّدْبُ" وَ "النِّيَاحَةُ" (بِمَعْنَى عَدِّ مَحَاسِنِ المَيِّتِ مَعَ التَّسَخُّطِ) فَهُوَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ، لقول النَّبِيِّ ﷺ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٩٣٤].

وَيَقُولُ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يُسْتَحَبُّ لِحَاضِرِي المَيِّتِ أَنْ يُصَبِّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَنْ يَكُونُوا فِي هَيْبَةٍ وَإِجْلَالٍ لِهَذَا المَوْقِفِ، وَأَنْ يَجْتَنِبُوا النِّيَاحَةَ وَالصِّيَاحَ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُؤْذِي المَيِّتَ وَيُخَالِفُ السُّنَّةَ". "الأَذْكَارُ" (ص: ١٤٥).

ويقول شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "البُكَاءُ بِمُجَرَّدِ دَمْعِ العَيْنِ رَحْمَةٌ، أَمَّا النِّيَاحَةُ وَالنَّدْبُ فَهِيَ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي حَرَّمَهَا الإِسْلَامُ، وَلَا يَنْفَعُ المَيِّتَ حِينَئِذٍ إِلَّا دُعَاءُ أَهْلِهِ لَهُ بِالثَّبَاتِ". "مَجْمُوعِ الفَتَاوَى" (٢٤/ ٣٨٠)

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يُصَوِّرُ مَشْهَدَ العَجْزِ البَشَرِيِّ؛ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا وَبَكَوْا وَنَدَبُوا لَا يَمْلِكُونَ لِلْمُحْتَضَرِ دَفْعًا لِلْمَوْتِ وَلَا تَأْخِيراً لِلأَجَلِ.

فَالنَّجَاةُ لَيْسَتْ بِتَجَمُّعِ الأَهْلِ حَوْلَ الجَسَدِ، بَلْ بِصَلَاحِ الرُّوحِ وَرِضَا الوَاحِدِ الأَحَدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾.

إعياء الطبيب أمام الموت

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَقَـدْ أَتَـوْا بِطَبِيـبٍ كَـيْ يُعَـالِجَنِي ۞ وَلَـمْ أَرَ الطِّـبَّ هَـذَا اليَـوْمَ يَنْفَعُنِـي

هَـذَا البَيْـتُ يَرْسُـمُ مَشْـهَدَ "انْقِطَـاعِ الأَسْـبَابِ المَادِيَّـةِ" عِنْـدَ نُـزُولِ القَضَاءِ، حَيْثُ تَقِفُ العُلُومُ البَشَرِيَّةُ، عَاجِزَةً أَمَامَ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى.

الشَّرْحُ:

يُصَوِّرُ النَّاظِمُ فِي قَوْلِهِ: **وَقَدْ أَتَوْا بِطَبِيبٍ كَيْ يُعَالِجَنِي**:

تَمَسُّـكَ الأَهْـلِ بِالأَسْـبَابِ الدُّنْيَوِيَّـةِ إِلَـى آخِـرِ لَحْظَـةٍ، وَهُـوَ أَمْـرٌ مَشْـرُوعٌ فِـي الجُمْلَـةِ؛ فَقَـدْ أَمَـرَ الإِسْـلَامُ بِالتَّـدَاوِي، كَمَـا جَـاءَ فِـي الحَـدِيثِ قَـالَ النَّبِـيِّ ﷺ: «**تَـدَاوَوْا عِبَـادَ اللهِ، فَـإِنَّ اللهَ سُـبْحَانَهُ لَـمْ يَضَـعْ دَاءً إِلَّا وَضَـعَ لَـهُ شِـفَاءً**» [أَخْرَجَـهُ أَبُـو دَاوُدَ فِـي سُـنَنِهِ: ٣٨٥٥، وَصَـحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

لَكِـنَّ النـاظم يُقَـرِّرُ الحَقِيقَـةَ اليَقِينِيَّـةَ فِـي قَوْلِـهِ: **وَلَـمْ أَرَ الطِّـبَّ هَـذَا اليَوْمَ يَنْفَعُنِي**:

لِأَنَّ الطِّبَّ يَنْفَعُ فِي تَأْخِيرِ المَرَضِ أَوْ عِلَاجِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَنْفَعُ فِي دَفْعِ المَوْتِ إِذَا جَاءَ الأَجَلُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المُنَافِقُونَ: ١١].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وتعالى: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۞ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الوَاقِعَةِ: ٨٦-٨٧]، أَيْ: لَنْ تَسْتَطِيعُوا رَدَّ الرُّوحِ إِلَى الجَسَدِ مَهْمَا بَلَغْتُمْ مِنَ العِلْمِ وَالطِّبِّ.

يَقُولُ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: "الطَّبِيبُ وَالدَّوَاءُ لَا يَدْفَعَانِ قَدَراً مَقْدُوراً، وَإِنَّمَا هُمَا مِنْ قَدَرِ اللهِ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ فِي حَالِ البَقَاءِ، فَإِذَا حُمَّ الأَجَلُ عَمِيَ البَصَرُ، وَبَطَلَ الدَّوَاءُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الِاسْتِسْلَامُ لِقَضَاءِ اللهِ". "زَادُ المَعَادِ" (٤/ ١٨٨).

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "إِذَا نَزَلَ المَوْتُ، لَمْ يَدْفَعْهُ طَبِيبٌ بِطِبِّهِ، وَلَا رَاقٍ بِرُقْيَتِهِ، وَلَا حَذِرٌ بِحَذَرِهِ؛ فَالخَلْقُ كُلُّهُمْ مَقْهُورُونَ بِسُلْطَانِ المَوْتِ". "لَطَائِفِ المَعَارِفِ" (ص: ١٦٤).

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ تَرْسِيخٌ لِعَقِيدَةِ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ؛ فَالمُؤْمِنُ يَأْخُذُ بِالسَّبَبِ، وَلَكِنَّ قَلْبَهُ يَتَعَلَّقُ بِمُسَبِّبِ الأَسْبَابِ.

وَفِي لَحْظَةِ الِاحْتِضَارِ، يَتَجَلَّى لِلْعَبْدِ أَنَّ النَّفعَ والضُّرَ بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ كُلَّ حِيَلِ البَشَرِ تَضْمَحِلُّ أَمَامَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القِيَامَةِ: ٢٧]، أَيْ: مَنْ يَرْقِيهِ وَيَشْفِيهِ؟ وَالحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا شَافِيَ إِلَّا اللهُ.

منازعة الروح

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَاشْتَدَّ نَزْعِي وَصَارَ المَوْتُ يَجْذِبُهَا ۞ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلَا رِفْقٍ وَلَا هَوَنِ

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ المَرْحَلَةَ الأَصْعَبَ فِي رِحْلَةِ العَبْدِ إِلَى الآخِرَةِ، وَهِيَ لَحْظَةُ "سَكَرَاتِ المَوْتِ" وَخُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ الجَسَدِ.

الشَّرْحُ:

يُصَوِّرُ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ شِدَّةَ الكَرْبِ فِي قَوْلِهِ: **وَاشْتَدَّ نَزْعِي وَصَارَ المَوْتُ يَجْذِبُهَا:**

وَالنَّزْعُ هُوَ: اقْتِلَاعُ الرُّوحِ مِنْ مَقَرِّهَا فِي الجَسَدِ، وَهَذَا المَشْهَدُ ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا**﴾ [النَّازِعَاتِ: ١]، أَيِ المَلَائِكَةِ الَّتِي تَنْزِعُ أَرْوَاحَ الكُفَّارِ أَوِ العُصَاةِ نَزْعًا شَدِيدًا.

وَقَدْ عَانَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ هَذِهِ الشِّدَّةِ لِيُعَلِّمَ أُمَّتَهُ، فَكَانَ يَقُولُ وَهُوَ فِي سِيَاقِ المَوْتِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**» [أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٤٤٤٩].

ثُمَّ يَصِفُ كَيْفِيَّةَ خُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ الجَسَدِ بِقَوْلِهِ: **مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلَا رِفْقٍ وَلَا هَوَنِ:**

وَهَذَا التَّصْوِيرُ يَتَّفِقُ مَعَ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي وَصْفِ خُرُوجِ رُوحِ الفَاجِرِ أَوِ العَاصِي، كَمَا فِي حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الطَّوِيلِ، حَيْثُ قَالَ ﷺ: «**فَتَفَرَّقُ** -أَيِ الرُّوحُ- **فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ** -مِثْلُ المِنْقَاشِ الكَبِيرِ- **مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَتَقْطَعُ مَعَهَا العُرُوقَ وَالعَصَبَ**» [أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: ١٨٥٣٤، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

قال الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "**شِدَّةُ المَوْتِ لَا تَدُلُّ عَلَى نَقْصٍ فِي العَبْدِ، بَلْ قَدْ تَكُونُ لِرَفْعِ الدَّرَجَاتِ أَوْ لِتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، لَكِنَّهَا فِي جَوْهَرِهَا أَلَمٌ عَظِيمٌ يَسْتَعِيذُ مِنْهُ المُؤْمِنُ**". "فَتْحِ البَارِي" (١١/ ٣٦٢).

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ تَرْهِيبٌ لِلنَّفْسِ مِنْ هَوْلِ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لِيَسْتَعِدَّ العَبْدُ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُهَوِّنُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ المَوْتِ. فَإِذَا كَانَ المَوْتُ يَجْذِبُ الرُّوحَ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ، فَمَا أَحْوَجَ العَبْدَ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ وَرِفْقِ مَلَكِ المَوْتِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ: «**المُؤْمِنِ تَخْرُجُ الرُّوحُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ**». فَاللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَكَرَاتِ المَوْتِ.

خروج الروح من الجسد

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَاسْتُخْرِجَتِ الرُّوحُ مِنِّي فِي تَغَرْغُرِهَا ۞ وَصَارَ رِيقِي مَرِيرًا حِينَ غَرْغَرَنِي

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ اللَّحْظَةَ الفَاصِلَةَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَهِيَ مَرْحَلَةُ "بُلُوغِ الرُّوحِ الحُلْقُومَ"، حَيْثُ تَنْكَشِفُ الحُجُبُ وَيَبْطُلُ الاِخْتِيَارُ.

الشَّرْحُ:

يُصَوِّرُ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ: **وَاسْتَخْرَجَ الرُّوحَ مِنِّي فِي تَغَرْغُرِهَا:**

فِعْلَ مَلَكِ المَوْتِ بِأَمْرِ رَبِّهِ، وَ"**التَّغَرْغُرُ**" هُوَ تَرَدُّدُ الرُّوحِ فِي الحَلْقِ عِنْدَ خُرُوجِهَا، وَهَذِهِ الحَالَةُ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القِيَامَة: ٢٦]، أَيْ بَلَغَتِ الرُّوحُ أَعْلَى الصَّدْرِ وَمَبَادِئَ الحَلْقِ، وَعِنْدَهَا يَنْقَطِعُ عَمَلُ الإِنْسَانِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ أَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**» [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ: ٣٥٣٧، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ].

ثُمَّ يَصِفُ أَلَمَ هَذِهِ اللَّحْظَةِ حِسِّيًّا فِي قَوْلِهِ: وَصَارَ رِيقِي مَرِيراً حِينَ غَرْغَرَنِي:

وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى التَّغَيُّرِ الَّذِي يَطْرَأُ عَلَى الحَوَاسِّ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، حَيْثُ يَفْقِدُ العَبْدُ طَعْمَ الدُّنْيَا وَيَذُوقُ مَرَارَةَ النَّزْعِ. وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ نُزُولِ المَوْتِ بِهِ أَنَّهُ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

يَقُولُ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "الغَرْغَرَةُ هِيَ آخِرُ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَأَوَّلُ أَحْوَالِ الآخِرَةِ، وَعِنْدَهَا يَشْتَدُّ الكَرْبُ، وَيَثْقُلُ اللِّسَانُ، وَتَتَغَيَّرُ مَذَاقَاتُ الفَمِ لِشِدَّةِ مَا يَنْزِلُ بِالبَدَنِ مِنْ تَفَكُّكِ الأَعْضَاءِ وَقَبْضِ الرُّوحِ". "التَّذْكِرَةِ" (ص: ٤٣).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: "الرُّوحُ إِذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا البَصَرُ، وَيَحْصُلُ لِلْمَيِّتِ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ أَلَمٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَإِنَّمَا نُقِلَتْ هَذِهِ الأَوْصَافُ (كَالغَرْغَرَةِ وَالمَرَارَةِ) لِيَكُونَ ذَلِكَ زَاجِراً لِلْمُؤْمِنِ عَنِ التَّسْوِيفِ فِي التَّوْبَةِ". "مَجْمُوعِ الفَتَاوَى" (٤/ ٢٦٣).

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ تَنْبِيهٌ إِلَى لَحْظَةِ "الفَوَاتِ"؛ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الغَرْغَرَةَ.

فَاللَّبِيبُ مَنْ أَصْلَحَ حَالَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ رِيقُهُ بِمَرَارَةِ المَوْتِ، وَقَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ نَفْسُهُ تَرَاقِيَهُ، مُسْتَعِينًا بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ المَوْتِ وَسَكَرَاتِ المَوْتِ**» [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: ٩٧٨].

حالة الجسد بعد خروج الروح

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَغَمَّضُوني وَرَاحَ الكُلُّ وَانْصَرَفُوا ۞ بَعْدَ الإِيَاسِ وَجَدُّوا فِي شِرَى الكَفَنِ

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ المَرْحَلَةَ الأُولَى بَعْدَ مُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ، وَهِيَ لَحْظَةُ "الِانْتِقَالِ إِلَى عَالَمِ الأَمْوَاتِ" وَبِدَايَةُ انْقِطَاعِ العَلَائِقِ بِالدُّنْيَا.

الشَّرْحُ:

يَبْدَأُ النَّاظِمُ بِذِكْرِ أَوَّلِ سُنَّةٍ نَبَوِيَّةٍ تُفْعَلُ مَعَ المَيِّتِ فِي قَوْلِهِ «**وَغَمَّضُوني**»، وَتَغْمِيضُ العَيْنَيْنِ بَعْدَ المَوْتِ مَشْرُوعٌ لِأَنَّ البَصَرَ يَتْبَعُ الرُّوحَ، كَمَا فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: **دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ»** [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمُ: ٩٢٠].

ثُمَّ يَصِفُ انْصِرَافَ النَّاسِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: **وَرَاحَ الكُلُّ وانْصَرَفُوا بَعْدَ الإِيَاسِ:**

وَالإِيَاسُ هُنَا هُوَ انْقِطَاعُ الأَمَلِ فِي عَوْدَتِهِ لِلْحَيَاةِ.

وَهَـذَا يُبَـيِّنُ حَقِيقَـةَ الـدُّنْيَا؛ فَمَهْمَـا بَلَـغَ حُـبُّ الأَهْـلِ، فَـإِنَّهُمْ بِمُجَـرَّدِ مَـوْتِ العَبْـدِ يَسْتَسْـلِمُونَ لِلْقَـدَرِ وَيَبْـدَأُونَ فِـي إِجْـرَاءَاتِ الـوَدَاعِ، وَقَـدْ قَـالَ ﷺ: «**يَتْبَـعُ المَيِّـتَ ثَلَاثَـةٌ، فَيَرْجِـعُ اثْنَـانِ وَيَبْقَـى مَعَـهُ وَاحِـدٌ: يَتْبَعُـهُ أَهْلُـهُ وَمَالُـهُ وَعَمَلُـهُ، فَيَرْجِـعُ أَهْلُـهُ وَمَالُـهُ وَيَبْقَـى عَمَلُهُ**» [أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ: ٦٥١٤، وَمُسْلِمٌ: ٢٩٦٠].

ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى تَهْيِئَةِ لِبَاسِ القَبْرِ بِقَوْلِهِ: **وَجَدُّوا فِي شِرَا الكَفَنِ:**

وَهَـذَا دَلِيـلٌ عَلَـى أَنَّ الإِنْسَـانَ يَخْـرُجُ مِـنَ الـدُّنْيَا بِقِطْعَـةِ قُمَـاشٍ لَا غَيْرَ، مَهْمَا مَلَكَ مِنْ ثَرْوَةٍ.

وَتَجْهِيـزُ المَيِّـتِ وَتَكْفِينُـهُ مِـنَ الفُـرُوضِ الكِفَائِيَّـةِ عِنْـدَ أَهْـلِ العِلْـمِ، وَالسُّـنَّةُ أَنْ يَكُـونَ الكَفَـنُ لَوْنُـهُ أَبْـيَضَ، لِقَوْلِـهِ ﷺ: «**الْبَسُـوا مِـنْ ثِيَـابِكُمُ الْبَيَـاضَ، فَإِنَّهَـا مِـنْ خَيْـرِ ثِيَـابِكُمْ، وَكَفِّنُـوا فِيهَـا مَوْتَـاكُمْ**» [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ: ٣٨٧٨، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

يَقُـولُ الإِمَـامُ ابْـنُ قُدَامَـةَ المَقْدِسِـيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِذَا تَـيَقَّنَ مَوْتَـهُ، سُـنَّ تَغْمِـيضُ عَيْنَيْـهِ لِـئَلَّا يَقْـبُحَ مَنْظَـرُهُ، ثُـمَّ يُسْـرَعُ فِـي جِهَـازِهِ -أَيْ تَجْهِيـزِهِ وَشِـرَاءِ كَفَنِـهِ-، لِأَنَّ هَـذَا مِـنْ كَرَامَـةِ المُسْـلِمِ تَعْجِيـلُ دَفْنِـهِ".

"المُغْنِي" (٢/ ٣٣٥).

ويقول الحافظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يَا مَنْ جَدَّ فِي شِرَاءِ دُورِهِ وَقُصُورِهِ، اعْلَمْ أَنَّ أَهْلَكَ سَيَجِدُّونَ فِي شِرَاءِ كَفَنِكَ، فَاجْعَلْ زَادَكَ لِمَا بَعْدَ كَفَنِكَ". "لَطَائِفِ المَعَارِفِ" (ص: ٣٨٨).

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يُصَوِّرُ السُّرْعَةَ الَّتِي يَتَحَوَّلُ فِيهَا الإِنْسَانُ مِنْ "شَخْصٍ" يُحَبُّ وَيُجَالَسُ، إِلَى "جَنَازَةٍ" يُسْرَعُ بِتَجْهِيزِهَا وَتَغْطِيَتِهَا.

فَمَنْ أَبْصَرَ انْصِرَافَ النَّاسِ عَنْهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، عَلِمَ أَنَّ أَوْفَى رَفِيقٍ لَهُ هُوَ عَمَلُهُ الصَّالِحُ، وَأَنَّ الثَّوْبَ الحَقِيقِيَّ لَيْسَ الكَفَنَ المَشْرِيَّ بِالمَالِ، بَلْ هُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

الاستعداد لتغسيل الميت

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَقَامَ مَنْ كَانَ أَحَبَّ النَّاسِ فِي عَجَلٍ ۞ نَحْوَ المُغَسِّلِ يَأْتِي كَيْ يُغَسِّلَنِي

هَذَا البَيْتُ يَنْتَقِلُ بِنَا إِلَى مَشْهَدِ "التَّجْرِيدِ الأَوَّلِ"، حَيْثُ تَبْدَأُ مَرَاسِمُ مُغَادَرَةِ الدُّنْيَا جَسَدِيًّا، وَيَتَحَوَّلُ المَرْءُ فِيهِ مِنْ "شَخْصٍ" لَهُ مَهَابَةٌ وَحُضُورٌ إِلَى "جَسَدٍ" يُقَلِّبُهُ الغَيْرُ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَقَامَ مَنْ كَانَ حِبَّ النَّاسِ فِي عَجَلٍ:

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي الإِسْرَاعِ بِتَجْهِيزِ الجَنَازَةِ، وَكَيْفَ أَنَّ مَنْ كَانُوا يَوَدُّونَ بَقَاءَكَ مَعَهُمْ، صَارُوا الآنَ يُسْرِعُونَ فِي إِخْرَاجِكَ، جاء في الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَسْرِعُوا بِالجِنَازَةِ؛ فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ».

[رَوَاه البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: ١٣١٥].

قَوْلُهُ: نَحْوَ المُغَسِّلِ يَأْتِي كَيْ يُغَسِّلَنِي:

هُنَا تَبْرُزُ حَقِيقَةُ العَجْزِ البَشَرِيِّ؛ فَالإِنْسَانُ الَّذِي كَانَ يَغْسِلُ نَفْسَهُ وَيَتَجَمَّلُ، صَارَ الآنَ مُسْتَسْلِمًا لِيَدِ المُغَسِّلِ.

قَوْلُهُ: مَنْ كَانَ حِبَّ النَّاسِ:

أَيْ: أَنَّ الشَّخْصَ المَحْبُوبَ المُقَرَّبَ، بِمُجَرَّدِ خُرُوجِ رُوحِهِ، يَتَحَوَّلُ عِنْدَ أَهْلِهِ إِلَى "مَيِّتٍ" يَجِبُ تَوْدِيعُهُ، وَهِيَ مَوْعِظَةٌ فِي زَوَالِ العَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَيْنَ الأَحِبَّةُ؟ أَيْنَ الخِلَّانُ؟ تَرَكُوكَ لِلْمُغَسِّلِ وَحْدَكَ، وَاشْتَغَلُوا بِتَقَاسُمِ مَا تَرَكْتَ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَكَ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ". [لَطَائِفُ المَعَارِفِ، ص: ٣٦٠].

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَتَوَلَّى الغُسْلَ أَمَانَةُ النَّاسِ وَأَقْرَبُهُمْ صِلَةً بِالمَيِّتِ، مَعَ سَتْرِ عَوْرَتِهِ وَعَدَمِ إِفْشَاءِ مَا قَدْ يُرَى مِنْ مَكْرُوهٍ.

رَوَى الإِمَامُ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَسَتَرَ عَلَيْهِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً». [سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ، كِتَابُ الجَنَائِزِ، رَقْمُ: ١٤٦٢ وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ يَضَـعُ القَلْـبَ أَمَـامَ حَقِيقَـةِ "الفَقْـدِ"؛ فَمَهْمَـا كَانَـتْ مَحَبَّـةُ النَّـاسِ لَـكَ، فَلَـنْ يَمْـنَعَهُمْ ذَلِـكَ مِـنْ تَعْجِيـلِ رَحِيلِـكَ عَـنْ دَارِهِمْ.

التحري في المغسل

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَقَـالَ يَـا قَـوْمِ نَبْغِـي غَاسِـلًا حَـذِقًا ۞ حُـرًّا أَرِيبًـا لَبِيبًـا عَارِفًـا فَطِـنِ

هَـذَا البَيْـتُ يُسَـلِّطُ الضَّـوْءَ عَلَـى "آدَابِ تَجْهِيـزِ المَيِّـتِ" وَأَهَمِّيَّـةِ اخْتِيَـارِ مَـنْ يَتَـوَلَّى عَمَلِيَّـةَ الغُسْـلِ، لِمَـا لِهَـذِهِ المَهَمَّـةِ مِـنْ خُصُوصِيَّةٍ وَأَمَانَةٍ.

الشَّرْحُ:

يُصَـوِّرُ النَّـاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ نِـدَاءَ أَهْـلِ المَيِّـتِ فِـي طَلَـبِ مَـنْ يُغَسِّـلُهُ فِـي قَوْلِهِ: وَقَالَ يَا قَوْمِ نَبْغِي غَاسِلاً حَذِقًا:

وَ "الحَـذِقُ" هُـوَ العَـالِمُ بِصَـنْعَتِهِ. وَهَـذَا يوافـق مَـعَ مَـا ذَكَـرَهُ الفُقَهَـاءُ مِـنْ أَنَّ أَوْلَـى النَّـاسِ بِغُسْـلِ المَيِّـتِ هُـوَ أَعْلَمُهُـمْ بِالسُّـنَّةِ، كَمَـا قَـالَ الإِمَـامُ الخِرَقِـيُّ فِـي "مُخْتَصَـرِهِ": "وَأَوْلَـى النَّـاسِ بِغُسْـلِ المَيِّـتِ وَصِـيُّهُ ..... ثُـمَّ الأَقْـرَبُ فَـالأَقْرَبُ مِـنْ عَصَـبَاتِهِ إِذَا كَـانُوا عُلَمَاءَ بِذَلِكَ".

ثُـمَّ يَسْـرِدُ النَّـاظِمُ صِـفَاتِ الغَاسِـلِ المَطْلُوبَـةِ: حُـرّاً أَدِيبـاً أَرِيبـاً عَارِفًا فَطِنِ:

وَهِيَ صِفَاتٌ تَدُورُ حَوْلَ "الأَمَانَةِ وَالسَّتْرِ".

أَدِيبًا، وَعَارِفًا: أَيْ عَالِمًا بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ فِي الغُسْلِ، حَتَّى لَا يَنْتَهِكَ حُرْمَةَ المَيِّتِ.

أَرِيبًا، وَفَطِنٍ: أَيْ ذَكِيًّا يَعْرِفُ كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَ جَسَدِ المَيِّتِ بِرِفْقٍ.

وَمِنْ أَعْظَمِ هَذِهِ الصِّفَاتِ "السَّتْرُ"، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ غَسَّلَ مُسْلِمًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً**» [أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ: ١/ ٣٥٤، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي أَحْكَامِ الجَنَائِزِ].

يَقُولُ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "**يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الغَاسِلُ ثِقَةً، أَمِينًا، وَرِعًا، عَارِفًا بِأَحْكَامِ الغُسْلِ، لِأَنَّ المَيِّتَ قَدْ تَبْدُو مِنْهُ عَوَارَاتٌ أَوْ مَكْرُوهَاتٌ، فَيَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَسْتُرُهُ وَلَا يُفْشِي سِرَّهُ**". "المَجْمُوعُ" (٥/ ١٢٨).

ويقول العَلَّامَةُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ: "**إِنَّمَا قِيدَ بِالأَمَانَةِ وَالفِطْنَةِ لِأَنَّهُ يُؤْتَمَنُ عَلَى المَيِّتِ، وَقَدْ يَرَى مَا لَا يُعْجِبُهُ، فَإِنْ رَأَى خَيْرًا - كَاسْتِنَارَةِ الوَجْهِ- ذَكَرَهُ، وَإِنْ رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ صَمَتَ، وَهَذَا مَحْضُ الأَدَبِ وَالأَرَبِ**". "المُغْنِي" (٢/ ٣٣٨).

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يُؤَكِّدُ حُرْمَةَ المُسْلِمِ مَيْتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا، لِقَوْلِهِ ﷺ: «كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا» [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: ٣٢٠٧ وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ].

لِذَا كَانَ الاِهْتِمَامُ بِاخْتِيَارِ الغَاسِلِ "الأَدِيبِ الفَطِنِ" ضَرُورَةً لِحِفْظِ كَرَامَةِ المُؤْمِنِ فِي آخِرِ مَحَطَّاتِ الدُّنْيَا، حَيْثُ يُسَلَّمُ جَسَدُهُ لِمَنْ يُطَهِّرُهُ بِمَاءِ السُّنَّةِ، وَيَسْتُرُهُ بِثَوْبِ الأَمَانَةِ.

نزع الثياب عن الميت

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فَجَـــاءَنِي رَجُـــلٌ مِـــنْهُمْ فَجَرَّدَنِـــي ۞ مِـــنَ الثِّيَـــابِ وَأَعْرَانِـــي وَأَفْرَدَنِـــي

هَـذَا البَيْـتُ يُصَـوِّرُ مَشْـهَدَ "التَّجْرِيـدِ الكَامِـلِ" مِـنَ الـدُّنْيَا، حَيْـثُ يَقِـفُ العَبْـدُ حَقِيقَـةً عَلَـى عَتَبَـةِ الآخِـرَةِ، مَسْـلُوبًا مِـنْ كُـلِّ مَـا كَـانَ يَتَزَيَّنُ بِهِ أَوْ يَسْتُرُ بِهِ نَفْسَهُ من أمور الدنيا.

الشَّرْحُ:

يَصِـفُ النَّـاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ بِدَايَـةَ عَمَـلِ المُغَسِّـلِ بِقَوْلِـهِ: **فَجَـاءَنِي رَجُـلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدَنِي مِنَ الثِّيَابِ:**

وَهِـيَ سُـنَّةٌ فِقْهِيَّـةٌ مُتَّبَعَـةٌ عِنْـدَ جُمْهُـورِ العُلَمَـاءِ؛ حَيْـثُ يُجَـرَّدُ المَيِّـتُ مِـنْ ثِيَابِـهِ لِيَـتَمَكَّنَ المُغَسِّـلُ مِـنْ تَنْظِيـفِ بَدَنِـهِ بِشَـكْلٍ صَحِيحٍ.

وَقَـدْ فَعَـلَ الصَّـحَابَةُ رَضِـيَ اللهُ عَـنْهُمْ ذَلِـكَ مَـعَ جَنَـائِزِهِمْ، إِلَّا مَـا كَـانَ مِـنْ خُصُوصِـيَّةِ النَّبِـيِّ ﷺ حَيْـثُ غَسَـلُوهُ فِـي قَمِيصِـهِ إِجْـلَالاً لَـهُ، كَمَـا رَوَتْ عَائِشَـةُ رَضِـيَ اللهُ عَنْهَـا ذلـك فقالـت: «**لَمَّـا أَرَادُوا غَسْـلَ النَّبِـيِّ ﷺ قَـالُوا: وَاللهِ مَـا نَـدْرِي أَنُجَـرِّدُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ مِـنْ**

ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا، أَمْ نُغَسِّلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟» [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: ٣١٤١، وَأَحْمَدُ: ٢٦٣٢٥].

ثُمَّ يَقُولُ: وَأَعْرَانِي وَأَفْرَدَنِي:

وَهَذَا التَّعْبِيرُ يَحْمِلُ دَلَالَتَيْنِ:

دَلَالَةٌ حِسِّيَّةٌ: وَهِيَ سَتْرُ العَوْرَةِ وُجُوبًا بَعْدَ التَّجْرِيدِ، فَلَا يَجُوزُ لِلْمُغَسِّلِ النَّظَرُ إِلَى عَوْرَةِ المَيِّتِ، بَلْ يَجِبُ وَضْعُ خِرْقَةٍ عَلَيْهَا.

دَلَالَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ: وَهِيَ "العُرْيُ" مِنَ المَنْصِبِ، وَالمَالِ، وَالجَاهِ؛ فَقَدْ جَاءَ الإِنْسَانُ إِلَى الدُّنْيَا عُرْيَانًا وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

يَقُولُ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يُسْتَحَبُّ أَنْ يُجَرَّدَ المَيِّتُ مِنْ ثِيَابِهِ جَمِيعًا، وَيُسْتَرُ مَا بَيْنَ سُرَّتِهِ وَرُكْبَتِهِ بِمِئْزَرٍ، حِفْظًا لِحُرْمَتِهِ".

"المِنْهَاجِ شرح صحيح مسلم بن الحجاج":

ويقول العَلَّامَةُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "تَأَمَّلْ يَا مَغْرُورُ سُرْعَةَ تَبَدُّلِ الحَالِ؛ بَيْنَمَا أَنْتَ فِي حُلَلِكَ وَدِيبَاجِكَ، إِذَا بِيَدِ الغَيْرِ

تُجَـرِّدُكَ، وَبِثِيَـابِ البِلَـى تُبَـدِّلُكَ، فَـلَا يَبْقَـى لَـكَ إِلَّا مَـا قَـدَّمْتَ مِـنْ عَمَلٍ". فِي "تَذْكِرَةِ الأَرِيبِ".

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْـتُ تَبْصِـيرٌ بِحَقِيقَـةِ الـتَّخَلُّصِ مِـنْ زِينَـةِ الفَنَـاءِ؛ فَهَـذِهِ الثِّيَـابُ الَّتِي كَـانَ الإِنْسَـانُ يَتَفَـاخَرُ بِهَـا، يَـأْتِي مَـنْ يَنْزِعُهَـا عَنْـهُ قَهْـراً، وَيُفْـرِدُهُ فِي مَغْسَلِهِ ثُمَّ فِي لَحْدِهِ.

فَالكَاسِـي يَـوْمَ القِيَامَـةِ مَـنْ كَسَـتْهُ التَّقْـوَى فِـي الـدُّنْيَا، وَالعُـرْيُ الحَقِيقِـيُّ هُـوَ العُـرْيُ مِـنَ الحَسَـنَاتِ، كَمَـا قَـالَ ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» [رواه مسلم].

وضع الميت على لوح التغسيل

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَأَوْدَعُــونِي عَلَــى الأَلْــوَاحِ مُنْطَرِحًــا ۞ وَصَــارَ فَــوْقِي خَرِيــرُ المَــاءِ يَنْظِفُنِــي

الشَّرْحُ:

يُصَوِّرُ البَيْتُ حَالَ المَيِّتِ وَهُوَ مَسْلُوبُ الإِرَادَةِ فَوْقَ "سَرِيرِ الغُسْلِ"، وَفِي هَذَا تَذْكِيرٌ بِعَجْزِ ابْنِ آدَمَ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ السُّلْطَانِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِذَا مَاتَ العَبْدُ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ التَّصَرُّفَاتُ، وَاسْتَسْلَمَ لِمَا يُفْعَلُ بِهِ، فَبَيْنَا هُوَ المُتَصَرِّفُ الآمِرُ، إِذَا بِهِ يُحْمَلُ وَيُوضَعُ وَيُقَلَّبُ وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا دَفْعًا». [الرُّوحُ لِابْنِ القَيِّمِ، دَارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، ص: ٦٤].

قَوْلُهُ: وَصَارَ فَوْقِي خَرِيرُ المَاءِ يَنْظِفُنِي:

يُوَافِقُ السُّنَّةَ فِي وُجُوبِ تَعْمِيمِ البَدَنِ بِالمَاءِ وَتَطْهِيرِهِ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي "صَحِيحِهِ"**: عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُنَّ فِي غُسْلِ ابْنَتِهِ: «**اغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ، بِمَاءٍ وَسِدْرٍ**». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ غُسْلِ المَيِّتِ: ١٢٥٣].

الحِكْمَةُ مِنَ التَّنْظِيفِ وَالتَّطْيِيبِ:

تَطْهِيرُ المَيِّتِ بِالمَاءِ وَالمُنَظِّفَاتِ (كَالسِّدْرِ وَالكَافُورِ) هُوَ إِكْرَامٌ لِلْمُؤْمِنِ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالمُرَادُ مِنَ الغُسْلِ التَّنْظِيفُ، وَتَطْيِيبُ رِيحِ المَيِّتِ، وَإِزَالَةُ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ أَذًى، لِيَكُونَ فِي حَالِ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى أَكْمَلِ الأَحْوَالِ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٣٦)].

مَوْعِظَةُ رُؤْيَةِ الغَاسِلِ لِلْمَيِّتِ:

تَأَثُّرُ الغَاسِلِ بِخَرِيرِ المَاءِ وَحَالِ المَيِّتِ هُوَ لُبُّ المَوْعِظَةِ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ أَعْظَمِ المَوَاعِظِ النَّظَرُ إِلَى المَيِّتِ وَهُوَ يُغَسَّلُ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَرَى جَسَداً كَانَ بِالأَمْسِ يَهْتَزُّ قُوَّةً، وَاليَوْمَ يُصَبُّ عَلَيْهِ المَاءُ وَهُوَ لَا يُحَرِّكُ سَاكِنًا». [لَطَائِفُ المَعَارِفِ لِابْنِ رَجَبٍ، دَارُ ابْنِ حَزْمٍ، ص: ٣٣٤].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ يُجَسِّدُ الِانْتِقَالَ مِنْ دَارِ العَمَلِ إِلَى دَارِ الجَزَاءِ؛ فَالمُؤْمِنُ يُغَسَّلُ بِمَاءِ الدُّنْيَا طَهَارَةً لِجَسَدِهِ، وَيَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يَغْسِلَهُ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ طَهَارَةً لِذُنُوبِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ

النبـــي ﷺ المَشْـــهُورِ: «اللَّهُـــمَّ اغْسِـــلْ خَطَايَـــايَ بِالْمَـــاءِ وَالـــثَّلْجِ وَالْبَرَدِ» [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، رَقْمُ: ٦٣٦٨].

تغسيل الميت

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَأَسْكَبَ المَاءَ مِنْ فَوْقِي وَغَسِّلَنِي ۞ غُسْلًا ثَلَاثًا وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ

هَذَا البَيْتُ يُتِمُّ مَشْهَدَ الطَّهَارَةِ الأَخِيرَةِ، حَيْثُ يَنْتَقِلُ المَيِّتُ مِنْ مَرْحَلَةِ "الغُسْلِ" إِلَى مَرْحَلَةِ "التَّكْفِينِ"، وَفِيهِ بَيَانٌ لِلسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي عَدَدِ غَسَلَاتِ المَيِّتِ وَسِتْرِهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: غَسْلاً ثَلَاثًا:

وهذا هُوَ عَيْنُ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَالغَسْلَةُ الوَاحِدَةُ وَاجِبَةٌ لِتَعْمِيمِ البَدَنِ، وَالثَّلَاثُ سُنَّةٌ وَمُسْتَحَبَّةٌ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُنَّ فِي غُسْلِ ابْنَتِهِ: «اغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا أَوْ خَمْسًا...». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ١٢٥٨].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالمُسْتَحَبُّ أَنْ يُغَسَّلَ ثَلَاثًا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِذَلِكَ، وَلِأَنَّ الثَّلَاثَ تَقْطَعُ الوَتْرَ وَتُبْلِغُ فِي التَّنْظِيفِ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٤٢)].

مَقَامُ النِّدَاءِ بِالكَفَنِ:

قَوْلُهُ: وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ:

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الِانْتِهَاءِ مِنْ طَهَارَةِ البَاطِنِ (تَنْظِيفِ الجَسَدِ) وَالبَدْءِ فِي طَهَارَةِ الظَّاهِرِ (السَّتْرِ بِالكَفَنِ).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «شُرِعَ الكَفَنُ لِسَتْرِ المَيِّتِ وَتَجْمِيلِهِ، لِيَكُونَ فِي أَحْسَنِ هَيْئَةٍ إِذَا قَدِمَ عَلَى رَبِّهِ، وَإِذَا زَارَهُ إِخْوَانُهُ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالمُؤْمِنِينَ». [زَادُ المَعَادِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٤٨٢)].

الِاعْتِبَارُ بِانْقِطَاعِ زِينَةِ الدُّنْيَا، فِي قَوْلِهِ: أَسْكَبَ المَاءَ...

وَغَسَّلَنِي:

تَنْبِيهٌ لِلْقَلْبِ أَنَّ العَبْدَ الَّذِي كَانَ يَأْنَفُ أَنْ يَمَسَّهُ الغَيْرُ، صَارَ الآنَ يُغَسَّلُ وَيُقَلَّبُ تَمْهِيداً لِلُّفُوفِ فِي خِرَقِ الكَفَنِ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا مَنْ كَانَ يَتَزَيَّنُ بِأَفْخَرِ الثِّيَابِ، اعْلَمْ أَنَّ آخِرَ لِبَاسِكَ خِرَقٌ تُلَفُّ فِيهَا، ثُمَّ تُودَعُ فِي التُّرَابِ، فَهَلْ أَعْدَدْتَ لِبَاسَ التَّقْوَى؟». [لَطَائِفُ المَعَارِفِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ٣٤١].

وُجُوبُ الكَفَنِ مِنْ مَالِ المَيِّتِ:

النِّدَاءُ بِالكَفَنِ يُذَكِّرُ بِحَقِّ المَيِّتِ المَالِيِّ، حَيْثُ يُبْدَأُ بِتَجْهِيزِهِ مِنْ مَالِهِ قَبْلَ قِسْمَةِ المِيرَاثِ.

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُبْدَأُ مِنْ مَالِ المَيِّتِ بِتَجْهِيزِهِ مِنْ كَفَنٍ وَمَا يَصْلُحُ لَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُقَدَّمٌ عَلَى الدَّيْنِ وَعَلَى الوَصِيَّةِ وَعَلَى المِيرَاثِ». [الأُمُّ لِلشَّافِعِيِّ، (١/ ٣١١)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يُحَقِّقُ مَعْنَى التَّسْلِيمِ لِلَّهِ؛ فَالجَسَدُ يُطَهَّرُ بِالسُّنَّةِ (ثَلَاثًا)، وَيُسْتَرُ بِالفَرِيضَةِ (الكَفَنِ)، لِيَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا دَخَلَهَا، لَا يَمْلِكُ إِلَّا طَهَارَةً يَرْجُو بِهَا القَبُولَ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ.

تكفين الميت

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَأَلْبِسُونِي ثِيَابًا لَكِنْ مَا لَهَا ۞ وَصَارَ زَادِي حَنُوطًا حِينَ حَنَّطَنِي

الثِّيَابُ المَقْصُودُ بِهَا هنا الأَكْفَانُ، وَلَيْسَ المَقْصُودُ بِهَا لُبْسَ القَمِيصِ وَالعِمَامَةِ لِأَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ.

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ المَرْحَلَةَ النِّهَائِيَّةَ مِنْ تَجْهِيزِ الجَسَدِ، وَهِيَ "**التَّكْفِينُ وَالتَّطْيِيبُ**"، حَيْثُ يَتَخَلَّى الإِنْسَانُ عَنْ مَلَابِسِ الدُّنْيَا ذَاتِ العُرَى وَالأَكْمَامِ، لِيَلْبَسَ ثَوْبَ الرَّحِيلِ الَّذِي لَا جُيُوبَ فِيهِ وَلَا زِينَةَ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: ثِيَابًا لَا كِمَامَ لَهَا:

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الكَفَنَ لَيْسَ مَخِيطًا كَثِيَابِ الدُّنْيَا، بَلْ هُوَ لَفَائِفُ تُدْرَجُ عَلَى المَيِّتِ إِدْرَاجًا.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي "صَحِيحِهِ": عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**كُفِّنَ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوابٍ يَمَانِيَّةٍ بِيضٍ**

سَحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ». [المَصْدَرُ: صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ١٢٦٤].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالسُّنَّةُ فِي الكَفَنِ أَنْ يَكُونَ لَفَائِفَ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي كُفِّنَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَلِأَنَّهُ أَسْتَرُ لِلْمَيِّتِ وَأَهْوَنُ فِي التَّجْهِيزِ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٧١)].

قَوْلُهُ: وَصَارَ زَادِي حَنُوطِي:

وَالحَنُوطُ: هُوَ طِيبٌ يُخْلَطُ وَيُوضَعُ عَلَى بَدَنِ المَيِّتِ وَكَفَنِهِ.

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُسْتَحَبُّ حَنُوطُ المَيِّتِ، وَهُوَ طِيبٌ يُوضَعُ فِي مَوَاضِعِ سُجُودِهِ وَبَدَنِهِ، لِيَطِيبَ رِيحُهُ عِنْدَ لِقَاءِ المَلَائِكَةِ». [مِنْهَاجُ الطَّالِبِينَ لِلنَّوَوِيِّ، ص: ٦١].

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "مُسْنَدِهِ": مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ يَأْتُونَ لِلْمُؤْمِنِ بِكَفَنٍ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٍ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ». [مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، (٣٠/ ٤٩١)، رَقْمُ: ١٨٥٣٤].

ووَصَفَ النَّاظِمُ الحَنُوطَ بِأَنَّهُ "زَادُهُ"، وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ تُبَيِّنُ أَنَّ المَرْءَ يَتْرُكُ كُلَّ أَمْوَالِهِ وَمَتَاعِهِ، وَلَا يَصْحَبُهُ إِلَّا هَذَا الطِّيبُ الَّذِي يُوضَعُ عَلَى جَسَدِهِ الفَانِي.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّمَا شُرِعَ الطِّيبُ لِلْمَيِّتِ لِأَنَّ الرُّوحَ الطَّيِّبَةَ تُحِبُّ الرِّيحَ الطَّيِّبَةَ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ أَمَارَةً عَلَى طِيبِ مَنْقَلَبِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ». [زَادُ المَعَادِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٤٨٤)].

فبِمُجَرَّدِ لُبْسِ هَذِهِ الثِّيَابِ الَّتِي لَا أَكْمَامَ لَهَا، يَنْغَلِقُ بَابُ العَمَلِ وَيُصْبِحُ العَبْدُ رَهِينًا لِمَا قَدَّمَ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَزَوَّدْ مِنَ التَّقْوَى، فَمَا الحَنُوطُ إِلَّا لِجَسَدِكَ، أَمَّا رُوحُكَ فَهِيَ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى طِيبِ العَمَلِ الصَّالِحِ لِتُفْتَحَ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ». [لَطَائِفُ المَعَارِفِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ٣٤٥].

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يَنْقُلُ المَوْعِظَةَ مِنْ حَيِّزِ القَوْلِ إِلَى حَيِّزِ الصُّورَةِ؛ ثِيَابٌ بِلَا أَكْمَامٍ، وَزَادٌ مِنْ حَنُوطٍ. فَمَنْ تَخَيَّلَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الحُلَّةِ الصَّامِتَةِ، عَلِمَ أَنَّ زِينَةَ الدُّنْيَا خَدَّاعَةٌ، وَأَنَّ الحُلَّةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ مَا سُتِرَ بِهِ الدِّينُ وَالإِيمَانُ.

الخروج من الدنيا

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَأَخْرَجُوني مِنَ الدُّنْيَا فَوَا أَسَفَا ۞ عَلَى رَحِيلٍ بِلَا زَادٍ يُبَلِّغُنِي

هَذَا البَيْتُ يُمَثِّلُ مَقَامَ "**الحَسْرَةِ وَالتَّأَسُّفِ**" عِنْدَ مُفَارَقَةِ الدَّارِ، حَيْثُ تَنْقَضِي رِحْلَةُ الدُّنْيَا وَتَبْدَأُ رِحْلَةُ الآخِرَةِ، وَيَبْرُزُ فِيهِ الخَوْفُ مِنْ قِلَّةِ العَمَلِ الصَّالِحِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَأَخْرَجُوني مِنَ الدُّنْيَا:

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الإِنْسَانَ مَسْلُوبُ الإِرَادَةِ فِي خُرُوجِهِ، كَمَا كَانَ مَسْلُوبًا فِي دُخُولِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «الدُّنْيَا مَنْزِلُ مَمَرٍّ لَا مَنْزِلُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فِيهَا عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ، فَاليَقِظُ مَنْ جَعَلَ خُرُوجَهُ مِنْهَا تَهَيُّؤاً لِمَا بَعْدَهَا، وَالغَافِلُ مَنْ أُخْرِجَ مِنْهَا قَهْراً وَهُوَ لَا يَشْعُرُ».

[طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ لِابْنِ القَيِّمِ، دَارُ السَّلَفِ، ص: ٢٥٤].

مَقَامُ الأَسَفِ وَالنَّدَمِ:

قَوْلُهُ: فَوَا أَسَفَا:

هُوَ نِدَاءُ المَحْزُونِ عَلَى مَا فَرَّطَ، وَهُوَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ﴾ [الزُّمر: ٥٦].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «كُلُّ مَنْ حَضَرَهُ المَوْتُ نَدِمَ؛ إِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لَا يَكُونَ ازْدَادَ مِنَ الإِحْسَانِ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَحَلَ وَصَحِيفَتُهُ خَالِيَةٌ؟».

[جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَمِ لِابْنِ رَجَبٍ، دَارُ ابْنِ الجَوْزِيِّ، (٢/ ٣٨٤)].

الرَّحِيلُ بِلَا زَادٍ:

قَوْلُهُ: عَلَى رَحِيلٍ بِلَا زَادٍ يُبَلِّغُنِي:

الزَّادُ هُنَا هُوَ التَّقْوَى وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَةُ: ١٩٧].

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ

صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الرِّقَاقِ، رَقْمُ الحَدِيثِ: ٦٤١٦].

جَاءَ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ، وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ قَلَائِلُ، فَاللهَ اللهَ فِي الزَّادِ لِلرَّحِيلِ». [المَصْدَرُ: سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ لِلذَّهَبِيِّ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، (١١/ ٢٣١)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ تَرْهِيبٌ مِنَ الاِغْتِرَارِ بِطُولِ الأَمَلِ؛ فَالرَّحِيلُ حَتْمٌ، وَالزَّادُ شَرْطٌ لِلنَّجَاةِ، وَالمُؤْمِنُ الحَقُّ هُوَ مَنْ يَجْعَلُ نَدَمَهُ فِي الدُّنْيَا بَاعِثًا عَلَى العَمَلِ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ نَدَمُهُ عِنْدَ المَوْتِ أَسَفًا لَا يَنْفَعُ.

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا رَأَيْتُ زَاداً أَبْلَغَ لِلْآخِرَةِ مِنَ التَّقْوَى، وَلَا أَخَسَّ زَاداً مِنَ العُدْوَانِ».

تشيع الجنازة

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَحَمَلُوني عَلَى الأَكْتَافِ أَرْبَعَةٌ ۞ مِنَ الرِّجَالِ وَخَلْفِي مَنْ يُشَيِّعُنِي

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ مَشْهَدَ "الجَنَازَةِ" وَحَمْلِ المَيِّتِ إِلَى قبره، حَيْثُ تَنْقَطِعُ صِلَةُ الإِنْسَانِ بِالأَرْضِ وَيُحْمَلُ عَلَى رِقَابِ الرِّجَالِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَحَمَّلُوني عَلَى الأَكْتَافِ أَرْبَعَةٌ:

يُشِيرُ إِلَى مَا اسْتَحَبَّهُ الفُقَهَاءُ فِي كَيْفِيَّةِ الحَمْلِ، وَهِيَ سُنَّةٌ جَرَى عَلَيْهَا العَمَلُ عِنْدَ السَّلَفِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَالسُّنَّةُ أَنْ يُحْمَلَ المَيِّتُ بَيْنَ العَمُودَيْنِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا اتَّبَعْتُمُ الجَنَازَةَ فَاحْمِلُوا بِجَوَانِبِ السَّرِيرِ الأَرْبَعَةِ**». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، مَكْتَبَةُ القَاهِرَةِ، (٢/ ٣٥٥)].

قَوْلُهُ: وَخَلْفِي مَنْ يُشَيِّعُنِي:

يَتَّفِقُ هذا اللفظ مَعَ مَا حَثَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ مِنْ إِكْرَامِ المُسْلِمِ بِتَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الإِيمَانِ، رَقْمُ الحَدِيثِ: ٤٧].

هَذَا المَشْهَدُ هُوَ ذِرْوَةُ الاِعْتِبَارِ؛ حَيْثُ يُحْمَلُ المَرْءُ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَمْشِي، وَيُسَاقُ إِلَى حُفْرَتِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَسْعَى فِي قُصُورِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ فِي الجَنَازَةِ المَشْيُ أَمَامَهَا، وَكَانَ الاِشْتِغَالُ بِالتَّفَكُّرِ وَالاِعْتِبَارِ هُوَ المَقْصُودُ الأَعْظَمُ، لِيَتَذَكَّرَ الحَامِلُ وَالمُشَيِّعُ أَنَّهُ سَيُحْمَلُ كَمَا حَمَلَ». [زَادُ المَعَادِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٤٨٤)].

كَلَامُ الجَنَازَةِ وَهِيَ عَلَى الأَكْتَافِ:

يُذَكِّرُ هَذَا البَيْتُ بِحَالِ المَيِّتِ وَهُوَ عَلَى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ، كَمَا رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا وُضِعَتِ الجَنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ لِأَهْلِهَا: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ١٣١٤].

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يَرْسُمُ آخِرَ مَظَاهِرِ "التَّكْرِيمِ" الدُّنْيَوِيِّ؛ حَيْثُ يُحْمَلُ الإِنْسَانُ إِعْزَازاً لِحُرْمَتِهِ، لَكِنَّ هَذَا التَّكْرِيمَ يَنْتَهِي عِنْدَ حَافَةِ القَبْرِ.

فَاللَّبِيبُ مَنْ عَلِمَ أَنَّ "مَنْ يُشَيِّعُنِي" سَيَنْصَرِفُونَ، وَلَنْ يَبْقَى مَعَهُ فَوْقَ الأَكْتَافِ وَتَحْتَ التُّرَابِ إِلَّا العَمَلُ الصَّالِحُ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يَا مَحْمُولاً عَلَى الأَكْتَافِ، سَتُوضَعُ فِي الضِّيقِ بَعْدَ الِاكْتِنَافِ، فَمَاذَا أَعْدَدْتَ لِلْخِلَافِ؟**».

تقديم الميت للصلاة عليه

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَقَـدِّمُونِي إِلَـى المِحْـرَابِ وَانْصَـرَفُوا ۞ خَلْـفَ الإِمَـامِ فَصَـلَّى ثُـمَّ وَدَّعَنِـي

هَـذَا البَيْـتُ يَصِـفُ مَشْـهَدَ "صَـلَاةِ الجَنَـازَةِ"، وَهِـيَ الشَّـفَاعَةُ الأَخِيرَةُ لِلْمُسْلِمِ مِنْ إِخْوَانِهِ قَبْلَ دَفْنِهِ، حَيْثُ يُوضَعُ المَيِّتُ أَمَامَ المِحْرَابِ لِيَكُونَ إِمَامًا لَهُمْ فِي المَوْعِظَةِ، وَيَكُونُوا هُمْ شُفَعَاءَ لَهُ عِنْدَ اللهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَقَدِّمُونِي إِلَى المِحْرَابِ:

يُشِيرُ إِلَى السُّنَّةِ فِي وَضْعِ المَيِّتِ أَمَامَ الإِمَامِ لِيُصَلَّى عَلَيْهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «السُّنَّةُ أَنْ يُوضَعَ المَيِّتُ مِمَّا يَلِي القِبْلَةَ، وَيَقُومَ الإِمَامُ عِنْدَ رَأْسِ الرَّجُلِ وَوَسَطِ المَرْأَةِ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٤٦)].

قَوْلُهُ: وَانْصَرَفُوا خَلْفَ الإِمَامِ فَصَلَّى:

يُبَيِّنُ أَهَمِّيَّةَ كَثْرَةِ المُصَلِّينَ عَلَى المَيِّتِ، فَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ هَدَايَا الأَحْيَاءِ لِلأَمْوَاتِ.

رَوَى الإِمَامُ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "صَحِيحِهِ" عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ».

[صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ٩٤٧].

قَوْلُهُ: ثُمَّ وَدَّعَنِي:

يُشِيرُ إِلَى انْتِهَاءِ الصَّلَاةِ بِالتَّسْلِيمِ، وَهِيَ آخِرُ عَهْدِ المَيِّتِ بِالمَسْجِدِ وَبِجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المَقْصُودُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى المَيِّتِ هُوَ الدُّعَاءُ لَهُ، وَلِهَذَا كَانَ ﷺ يَقِفُ بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الثَّالِثَةِ فَيُخْلِصُ الدُّعَاءَ لِلْمَيِّتِ، فَهَذَا هُوَ التَّوْدِيعُ الحَقِيقِيُّ». [زَادُ المَعَادِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٤٨٧)].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظًا، فَبَيْنَمَا كَانَ هَذَا العَبْدُ يَقُومُ فِي المِحْرَابِ سَاجِداً رَاكِعًا، صَارَ الآنَ أَمَامَ المِحْرَابِ جَنَازَةً مَحْمُولَةً، فَالصَّلَاةُ عَلَيْهِ تُذَكِّرُ مَنْ خَلْفَ الإِمَامِ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ يَوْمًا مَكَانَهُ». [لَطَائِفُ المَعَارِفِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ٣٤٨].

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يَنْقُلُ لَنَا لَحْظَةَ الفِرَاقِ الرَّسْمِيِّ عَنْ بيُوتِ اللهِ فِي الأَرْضِ؛ فَالصَّلَاةُ عَلَى المَيِّتِ هِيَ إِعْلَانٌ لِانْتِهَاءِ رِحْلَةِ التَّكْلِيفِ وَبِدَايَةِ رِحْلَةِ التَّشْرِيفِ أَوْ التَّخْوِيفِ.

وَالمُؤْمِنُ يَخْرُجُ مِنْ مِحْرَابِهِ مَحْمُولاً عَلَى دَعَوَاتِ المُوَحِّدِينَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ**». فَمَنْ عَاشَ لِلْمِحْرَابِ مُصَلِّيًا، هَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدَّمَ إِلَيْهِ مُصَلًّى عَلَيْهِ.

كيفية الصلاة على الميت

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

صَلَّوا عَلَيَّ صَلَاةً لا رُكُوعَ لَهَا ۞ وَلا سُجُودَ لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنِي

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ "هَيْئَةَ صَلَاةِ الجَنَازَةِ" الَّتِي تَمَيَّزَتْ عَنْ بَقِيَّةِ الصَّلَوَاتِ بِخُلُوِّهَا مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَيُبَيِّنُ الغَايَةَ العُظْمَى مِنْهَا وَهِيَ اسْتِمْطَارُ رَحَمَاتِ اللهِ عَلَى المَيِّتِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: صَلَاةً لَا رُكُوعَ لَهَا وَلَا سُجُودَ:

هُوَ تَوْصِيفٌ دَقِيقٌ لِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الأَئِمَّةُ فِي صِفَةِ الجَنَازَةِ؛ فَهِيَ قِيَامٌ كُلُّهَا وَتَكْبِيرٌ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ عَلَى أَنَّ صَلَاةَ الجَنَازَةِ لَيْسَ فِيهَا رُكُوعٌ وَلَا سُجُودٌ، وَإِنَّمَا هِيَ تَكْبِيرٌ وَقِرَاءَةٌ وَصَلَاةٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدُعَاءٌ لِلْمَيِّتِ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٤٧)].

خَتَمَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ البَيْتَ بِطَلَبِ الرَّحْمَةِ مِن الله تعالى، وَهِيَ المَقْصُودُ الأَسْمَى مِنَ الاِجْتِمَاعِ لِلصَّلَاةِ عَلَى المَيِّتِ.

رَوَى الإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "سُنَنِهِ" أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ». [سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ، كِتَابُ الجَنَائِزِ، رَقْمُ: ٣١٩٩، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «شُرِعَتِ الصَّلَاةُ عَلَى المَيِّتِ شَفَاعَةً لَهُ، وَإِخْلَاصًا لِلدُّعَاءِ لَهُ، وَرَجَاءً لِرَحْمَةِ اللهِ أَنْ تَنْزِلَ بِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا». [زَادُ المَعَادِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٤٨٢)].

تَمَيُّزُ هَذِهِ الصَّلَاةِ عَنْ غَيْرِهَا:

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ العَسْقَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ الحِكْمَةَ فِي كَوْنِهَا بِلَا رُكُوعٍ وَلَا سُجُودٍ لِتَمْيِيزِهَا عَنْ صَلَوَاتِ العِبَادَةِ المَحْضَةِ، وَلِأَنَّهَا صَلَاةُ شَفَاعَةٍ وَدُعَاءٍ، وَالمَقَامُ مَقَامُ اسْتِعْجَالٍ لِتَجْهِيزِ المَيِّتِ. فَتْحِ البَارِي" (٣/ ١٨٠).

مَوْعِظَةُ الأَئِمَّةِ فِي آخِرِ صَلَاةٍ:

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنْتُ إِذَا رَأَيْتُ الجَنَازَةَ قُلْتُ: يَا نَفْسُ، هَذِهِ صَلَاةٌ لَا رُكُوعَ لَهَا، فَهَلْ أَعْدَدْتِ لِلَّتِي لَا قِيَامَ بَعْدَهَا؟». [طَبَقَاتُ الحَنَابِلَةِ لِابْنِ أَبِي يَعْلَى، (١/ ١٣)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ يُلَخِّـصُ حَـالَ العَبْـدِ المُحْتَـاجِ؛ فَبَعْـدَ أَنْ كَـانَ يُرْكَـعُ وَيَسْـجُدُ لِيَرْحَمَـهُ اللهُ، صَـارَ الآنَ يَنْتَظِـرُ رَحْمَـةَ اللهِ عَـنْ طَرِيـقِ دُعَـاءِ الآخَرِينَ لَهُ فِي صَلَاةٍ خَفِيفَةِ الوَزْنِ ثَقِيلَةِ الأَجْرِ.

فَالطَّاعَـةُ فِـي الحَيَـاةِ هِـيَ الَّتِـي تَجْعَـلُ لِلْعَبْـدِ "**لِسَـانَ صِـدْقٍ**" يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ.

إنزال الميت إلى قبره

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَأَنْزَلُونِي إِلَى قَبْرِي عَلَى مَهَلٍ ۞ وَقَدَّمُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يُلَحِّدُنِي

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ المَرْحَلَةَ المُرْعِبَةَ وَالحَاسِمَةَ، وَهِيَ "**إِيدَاعُ المَيِّتِ فِي لَحْدِهِ**"، حَيْثُ يُفَارِقُ العَبْدُ ضِيَاءَ الدُّنْيَا إِلَى ظُلْمَةِ القَبْرِ، وَيُسَلِّمُهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ إِلَى ضِيقِ اللَّحْدِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَأَنْزَلُونِي إِلَى قَبْرِي عَلَى مَهَلٍ:

يَتَّفِقُ مَعَ مَا نَصَّ عَلَيْهِ الفُقَهَاءُ مِنَ اسْتِحْبَابِ الرِّفْقِ بِالمَيِّتِ عِنْدَ إِدْخَالِهِ قَبْرَهُ، لِأَنَّ حُرْمَتَهُ مَيْتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ المَقْدِسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُسَلَّ المَيِّتُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ سَلًّا رَفِيقًا، وَيُوضَعَ فِي قَبْرِهِ عَلَى مَهَلٍ، لِأَنَّ هَذَا أَبْلَغُ فِي كَرَامَتِهِ**». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٧٩)].

قَوْلُهُ: وَقَدَّمُوا وَاحِداً مِنْهُمْ يُلَحِّدُنِي:

وَاللَّحْدُ هُوَ أَنْ يُحْفَرَ فِي أَسْفَلِ جَانِبِ القَبْرِ مِمَّا يَلِي القِبْلَةَ مَكَانٌ يُوضَعُ فِيهِ المَيِّتُ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الشَّقِّ.

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّحْدُ لَنَا، وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا».

[مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، رَقْمُ: ٢٣٤١، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَتَوَلَّى وَضْعَ المَيِّتِ فِي لَحْدِهِ أَوْلَى النَّاسِ بِهِ، وَيَقُولُ: بِسْمِ اللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ». [الأُمُّ لِلشَّافِعِيِّ، (١/ ٣١٣)].

فعلى العبد أن يعتبر بِضِيقِ المَحَلِّ بَعْدَ السَّعَةِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَأَمَّلْ حَالَ هَذَا الإِنْسَانِ، قَدَّمُوا وَاحِداً لِيَضَعَهُ فِي ذَلِكَ اللَّحْدِ الضَّيِّقِ، بَعْدَمَا كَانَ يَتَبَوَّأُ مِنَ الأَرْضِ حَيْثُ يَشَاءُ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا مَوْضِعُ جَسَدِهِ، فَهَذَا هُوَ الحَبْسُ الحَقِيقِيُّ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ». [الرُّوحُ لِابْنِ القَيِّمِ، ص: ٨٢].

كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقِفُ عَلَى القَبْرِ إِذَا سُوِّيَ فَيَقُولُ: «يَا سَاكِنَ القَبْرِ، غَداً تُفْرَدُ فِي لَحْدِكَ، وَيَرْجِعُ عَنْكَ أَحِبَّتُكَ، فَلَا يَبْقَى مَعَكَ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ». [حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نُعَيْمٍ، (٥/ ٢٨١)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

البَيْتُ يَنْقُلُ صُورَةَ "التَّسْلِيمِ النِّهَائِيِّ"؛ حَيْثُ يُنَزَّلُ الإِنْسَانُ بِيَدِ غَيْرِهِ إِلَى حُفْرَةٍ لَا يَمْلِكُ فِيهَا حَرَاكًا.

فَمَنْ أَبْصَرَ نَفْسَهُ وَهِيَ تُسَلُّ إِلَى اللَّحْدِ، عَلِمَ أَنَّ الدَّارَ المَسْكُونَةَ حَقِيقَةً هِيَ الَّتِي تُبْنَى بِالطَّاعَاتِ قَبْلَ أَنْ يُهَالَ عَلَيْهَا التُّرَابُ.

الاعتبار بحالة الميت في قبره

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي لِيَنْظُرَنِي ۞ وَأَسْكَبَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ أَغْرَقَنِي

هَذَا البَيْتُ يُصَوِّرُ لَحْظَةَ "الوَدَاعِ الأَخِيرِ" دَاخِلَ القَبْرِ، حَيْثُ يُلْقِي القَرِيبُ أَوْ الصَّدِيقُ نَظْرَةَ الأَسَى قَبْلَ أَنْ يُوَارِيَ المَيِّتَ التُّرَابَ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي لِيَنْظُرَنِي:

يُشِيرُ إِلَى جَوَازِ نَظَرِ الأَهْلِ وَالأَصْحَابِ إِلَى المَيِّتِ وَتَقْبِيلِهِ وَدَاعًا لَهُ، وَهِيَ سُنَّةٌ ثَبَتَتْ عَنِ الصَّحَابَةِ وَفَعَلَهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه مَعَ النَّبِيِّ ﷺ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي "صَحِيحِهِ" عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «جَاءَ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ١٢٤١].

قَوْلُهُ: وَأَسْبَلَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ:

يُصَوِّرُ دَمْعَ الرَّحْمَةِ الَّذِي لَا يُؤَاخِذُ اللهُ بِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ نِيَاحَةٌ أَوْ تَسَخُّطٌ.

رَوَى الإِمَامُ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى ابْنِ ابْنَتِهِ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ». [صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ٩٢٣].

قَوْله: كَشَفَ الثَّوْبَ... لِيَنْظُرَنِي:

إِشَارَةٌ إِلَى حَالِ المَيِّتِ فِي اللَّحْدِ حَيْثُ يُنَحَّى الكَفَنُ عَنْ وَجْهِهِ قَلِيلاً لِيُمَسَّ خَدُّهُ الأَرْضَ عِنْدَ بَعْضِ العُلَمَاءِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُفْضِيَ بِخَدِّ المَيِّتِ إِلَى الأَرْضِ، وَيُحَلُّ العُقَدُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ وَرِجْلَيْهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَمْكَنَ لَهُ فِي مَضْجَعِهِ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٨٢)].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَبْكِي العُيُونُ عِنْدَ لَحْدِ الصَّدِيقِ، وَتَنْهَمِرُ الدُّمُوعُ لِفِرَاقِ الرَّفِيقِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الدُّمُوعَ لَا تَدْفَعُ عَنْكَ ضِيقًا، وَلَا تُؤْنِسُ لَكَ فِي اللَّحْدِ طَرِيقًا، إِنَّمَا

يُؤْنِسُكَ دَمْعُكَ الَّذِي ذَرَفْتَهُ فِي خَلْوَةِ السَّحَرِ خَوْفًا مِنَ المَلِكِ القَهَّارِ». [لَطَائِفُ المَعَارِفِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ٣٥٢].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ يَمْزُجُ بَيْنَ الرَّحْمَةِ البَشَرِيَّةِ وَالحَقِيقَةِ الأَزَلِيَّةِ؛ فَمَهْمَا بَلَغَ حُزْنُ مَنْ كَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِكَ، فَإِنَّهُ سَيُغَطِّيهِ بَعْدَ لَحَظَاتٍ وَيُسَلِّمُكَ لِلتُّرَابِ. فَالطَّرِيقُ إِلَى الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ هُوَ العَمَلُ، وَبُكَاءُ الأَحِبَّةِ لَنْ يُغْنِيَ عَنِ المَيِّتِ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِذَا نَزَلَ بِسَاحَةِ الحِسَابِ.

تصفيف اللبن قبل الدفن

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فَقَـــامَ مُحْتَرِمًـــا بِـــالعَزْمِ مُشْـــتَمِلًا ۞ وَصَـــفَّفَ اللَّـــبِنَ مِـــنْ فَـــوْقِي وَفَـــارَقَنِي

هَذَا البَيْتُ يَصِفُ المَرْحَلَةَ المِحْوَرِيَّةَ فِي الدَّفْنِ، وَهِيَ "**إِغْلَاقُ اللَّحْدِ**"، حَيْثُ يُوضَعُ الحَاجِزُ بَيْنَ المَيِّتِ وَبَيْنَ عَالَمِ الأَحْيَاءِ، فَتَنْقَطِعُ آخِرُ خُيُوطِ الِاتِّصَالِ بِالدُّنْيَا.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَصَفَّفَ اللَّبْنَ مِنْ فَوْقِي:

وَاللَّبِنُ هُوَ الطُّوبُ النِّيءُ مِنَ الطِّينِ، وَيُسْتَحَبُّ سَدُّ فَتَحَاتِ اللَّحْدِ بِهِ لِحِمَايَةِ جَسَدِ المَيِّتِ مِنْ دُخُولِ التُّرَابِ عَلَيْهِ مُبَاشَرَةً.

رَوَى الإِمَامُ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي "**صَحِيحِهِ**" عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِهِ: «**الْحَدُوا لِي لَحْدًا، وَانْصِبُوا عَلَيَّ اللَّبِنَ نَصْبًا، كَمَا صُنِعَ بِرَسُولِ اللهِ** ﷺ». [صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ٩٦٦].

قَوْلُهُ: وَفَارَقَنِي:

يُبَيِّنُ لَحْظَةَ الِانْفِرَادِ؛ فَالمُغَسِّلُ وَالمُشَيِّعُ وَالوَاضِعُ فِي اللَّحْدِ، كُلُّهُمْ يَقُومُونَ بِمَهَمَّتِهِمْ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ، وَلَا يَبْقَى مَعَ المَيِّتِ إِلَّا مَا قَدَّمَ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ». [صَحِيحُ البُخَارِيُّ، كِتَابُ الرِّقَاقِ: ٦٥١٤].

قَوْلُهُ: فَقَامَ مُحْتَرِمًا بِالعَزْمِ مُشْتَمِلاً:

يُشِيرُ إِلَى جِدِّيَّةِ مَنْ يَتَوَلَّى الدَّفْنَ فِي إِتْمَامِ هَذِهِ العِبَادَةِ بِأَدَبٍ وَاتِّبَاعٍ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُسْتَحَبُّ سَدُّ خِلَلِ اللَّبِنِ بِالطِّينِ، لِيَكُونَ أَحْكَمَ لَهُ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَفَنَ إِبْرَاهِيمَ ابْنَهُ رَأَى فِي قَبْرِهِ فُرْجَةً فَأَمَرَ بِسَدِّهَا، وَقَالَ: إِنَّهَا لَا تَضُرُّ المَيِّتَ وَلَا تَنْفَعُهُ، وَلَكِنَّهَا تَقَرُّ بِهَا عَيْنُ الحَيِّ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٨١)].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا صَفَّفُوا اللَّبْنَ فَقَدْ أَوْصَدُوا البَابَ، وَإِذَا أَهَالُوا التُّرَابَ فَقَدْ انْقَطَعَ الجَوَابُ، فَيَا سَاكِنَ القَبْرِ هَلْ أَعْدَدْتَ لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابًا؟». [لَطَائِفُ المَعَارِفِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ٣٥٥].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ يَرْسُمُ الحَدَّ الفَاصِلَ بَيْنَ "الدَّارِ الفَانِيَةِ" وَ "البَرْزَخِ"؛ فَبَعْدَ صَفِّ اللَّبِنِ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

وَالمُـؤْمِنُ الكَـيِّسُ هُـوَ مَـنْ يَعْمُـرُ مَـا بَـيْنَ اللَّـبِنِ وَالأَرْضِ بِالـذِّكْرِ وَالطَّاعَـةِ قَبْـلَ أَنْ يَقُـومَ عَنْـهُ آخِـرُ مَـنْ وَارَاهُ التُّـرَابَ، فَيَبْقَـى وَحِيـداً يُرَاهِنُ عَلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ.

مواراة الميت تحت التراب

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَقَـالَ هَلُّـوا عَلَيْـهِ التُّـرْبَ وَاغْتَنِمُـوا ۞ حُسْـنَ الثَّـوَابِ مِـنَ الـرَّحْمَنِ ذِي المَـنَنِ

هَـذَا البَيْـتُ يَصِـفُ المَرْحَلَـةَ الأَخِيـرَةَ مِـنْ مُـوَارَاةِ الجَسَـدِ، وَهِـيَ "إِهَالَـةُ التُّـرَابِ"، حَيْـثُ يُنَـادِي المُنَـادِي بِإِتْمَـامِ الـدَّفْنِ طَلَبًـا لِلأَجْـرِ وَالثَّوَابِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: هُلُّوا عَلَيْهِ التُّرْبَ:

يَتَّفِـقُ مَـعَ مَـا نُـدِبَ إِلَيْـهِ المُشَـيِّعُونَ مِـنْ جَعْـلِ التُّـرَابِ غِطَـاءً لِلْمَيِّتِ، وَيُسْتَحَبُّ لِكُلِّ مَنْ حَضَرَ أَنْ يَحْثُوَ ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ بِيَدِهِ.

رَوَى ابْـنُ مَاجَـه رَحِمَهُ اللهُ: عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ: «أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ صَـلَّى عَلَـى جَنَـازَةٍ، ثُـمَّ أَتَـى قَبْـرَ الْمَيِّـتِ فَحَثَـا عَلَيْـهِ مِـنْ قِبَـلِ رَأْسِـهِ ثَلَاثًـا». [سُـنَنُ ابْـنِ مَاجَـه، كِتَـابُ الجَنَـائِزِ، رَقْـمُ: ١٥٦٥، وَصَـحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ].

قَوْلُهُ: واغْتَنِمُوا حُسْنَ الثَّوَابِ:

يُشِيرُ إِلَى الأَجْرِ العَظِيمِ المُتَرَتِّبِ عَلَى شُهُودِ الدَّفْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ الجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ». قِيلَ: وَمَا القِيرَاطَانِ؟ قَالَ: «مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ١٣٢٥].

إِتْمَامُ الدَّفْنِ وَتَسْوِيَةُ القَبْرِ:

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُرْفَعَ القَبْرُ عَنِ الأَرْضِ قَدْرَ شِبْرٍ، لِيُعْلَمَ أَنَّهُ قَبْرٌ فَيُتَرَحَّمَ عَلَيْهِ وَيُتَجَنَّبَ الجُلُوسُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ إِحْسَانِ الحَيِّ إِلَى المَيِّتِ». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٨١)].

خَتَمَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ البيت بِذِكْرِ "الرَّحْمَنِ" لِيَفْتَحَ بَابَ الرَّجَاءِ لِلْمَيِّتِ فِي لَحْظَةٍ انْقَطَعَ فِيهَا عَنْ كُلِّ حَيٍّ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا كَانَ المَيِّتُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَمَلِ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ مِقْدَارِ رَحْمَتِهِ مَنْ يَقُومُ عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُ

لَـهُ، فَيُـؤْجَرُ الحَـيُّ وَيُنْتَفَـعُ المَيِّـتُ، وَهَـذَا مِـنْ مَحْـضِ مِنَّةِ الـرَّحْمَنِ».

[زَادُ المَعَادِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٥٠١)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "خَاتِمَـةُ الحَيَـاةِ الدُّنْيَوِيَّـةِ"؛ تُـرَابٌ يُهَـالُ، وَأَجْـرٌ يُكْتَبُ لِلْمُشَيِّعِينَ.

وَفِيـهِ دَلَالَـةٌ عَلَـى أَنَّ كَرَامَـةَ المُسْـلِمِ تَمْتَـدُّ حَتَّـى يُغَطِّيَـهُ التُّـرَابُ. فَـاللهَ اللهَ فِـي اغْتِنَـامِ أَعْمَـالِ البِـرِّ قَبْـلَ أَنْ تَكُـونَ أَنْـتَ المَحْثُـوَّ عَلَيْـهِ التُّرَابَ، فَإِنَّ المَنَّانَ سُبْحَانَهُ لَا يُضِيعُ عَمَلَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

وحشة القبر

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فِـي ظُلْمَـةِ القَبْـرِ لا أُمٌّ هُنَـاكَ وَلا ۞ أَبٌ شَـفِيقٌ وَلا أَخٌ يُؤْنِسُـنِي

هَـذَا البَيْـتُ يَنْقُلُنَـا إِلَـى مَقَـامِ "الوَحْـدَةِ وَالِانْفِـرَادِ"، حَيْـثُ تَنْقَطِـعُ عُـرَى القَرَابَـةِ وَتَتَلَاشَـى الصِّـلَاتُ الدُّنْيَوِيَّـةُ، فَـلَا يَبْقَـى لِلْمَـرْءِ إِلَّا مَـا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: لَا أُمٌّ هُنَاكَ وَلَا أَبٌ:

هُـوَ مِصْـدَاقٌ لِقَـوْلِ اللهِ تَعَـالَى: ﴿فَـإِذَا نُفِـخَ فِـي الصُّـورِ فَـلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

قَـالَ الإِمَـامُ ابْـنُ القَـيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا دَخَـلَ المَيِّـتُ قَبْـرَهُ، انْفَـرَدَ عَـنْ كُـلِّ شَـفِيقٍ وَرَفِيـقٍ، وَوَلَّـى عَنْـهُ أَهْلَـهُ وَأَحِبَّتَـهُ، فَـإِنْ كَـانَ طَائِعًـا آنَسَـهُ عَمَلُـهُ، وَإِنْ كَـانَ غَيْـرَ ذَلِـكَ اسْـتَوْحَشَ بِمَـا قَـدَّمَ». [الـرُّوحُ لِابْـنِ القَـيِّمِ، ص: ٧٨].

قَوْلُهُ: فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ:

يُذَكِّرُ بِهَوْلِ المَضْجَعِ الَّذِي لَا يُنِيرُهُ إِلَّا العَمَلُ الصَّالِحُ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي قِصَّةِ المَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ تَقُمُّ المَسْجِدَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ». [صَحِيحُ مُسْلِمٍ (وَأَصْلُهُ فِي البُخَارِيِّ)، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ٩٥٦].

قَوْلُهُ: وَلَا أَخٌ يُؤَنِّسُنِي:

يُؤَكِّدُ أَنَّ الأُنْسَ الحَقِيقِيَّ فِي هَذَا الضِّيقِ لَيْسَ بِالبَشَرِ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْزِلُ المَيِّتُ القَبْرَ فَيُفَارِقُ كُلَّ مُؤْنِسٍ كَانَ يَأْنَسُ بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ وَأَخٍ، فَلَا يَبْقَى لَهُ أَنِيسٌ إِلَّا مَا كَانَ يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ عَمَلُهُ الصَّالِحُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ حَسَنِ الوَجْهِ طَيِّبِ الرِّيحِ يُؤَنِّسُ وَحْشَتَهُ». [أَهْوَالُ القُبُورِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ١٢٤].

كَانَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «الخَوْفُ مَنَعَنِي أَكْلَ الطَّعَامِ وَشُرْبَ الشَّرَابِ، وَإِذَا ذَكَرْتُ المَوْتَ هَانَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، إِنَّمَا هِيَ خَطَوَاتٌ إِلَى القَبْرِ حَيْثُ لَا أَنِيسَ إِلَّا التَّقْوَى». [سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ لِلذَّهَبِيِّ، (١١/ ٢٢٧)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ قِمَّـةُ التَّجْرِيـدِ؛ فَالإِنْسَـانُ الَّـذِي عَـاشَ مَحْفُوفـًا بِعَاطِفَـةِ الأُمِّ وَحِمَايَـةِ الأَبِ وَمُؤَانَسَـةِ الأَخِ، يَجِـدُ نَفْسَـهُ فَجْـأَةً فِـي مَكَانٍ لَا تَنْفَعُ فِيهِ هَذِهِ المَشَاعِرُ.

فَاللَّبِيبُ مَـنْ صَـنَعَ لِنَفْسِـهِ أَنِيسـًا مِـنْ طَاعَـةِ اللهِ وَذِكْـرِهِ، لِيَكُـونَ لَـهُ نُوراً فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ، وَرَفِيقـًا حِينَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ جَمِيعُ الخَلْقِ.

وحدة القبر وقلة الزاد

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فَرِيدٌ وَحِيدٌ القَبْرُ، يَا أَسَفَا ۞ عَلَى الفِرَاقِ بِلَا عَمَلٍ يُزَوِّدُنِي

هَذَا البَيْتُ يُلَخِّصُ حَالَ "الغُرْبَةِ الثَّانِيَةِ"، حَيْثُ يَنْقَلِبُ التَّأَسُّفُ مِنْ مُجَرَّدِ حُزْنٍ عَلَى فِرَاقِ الأَحِبَّةِ إِلَى حَسْرَةٍ عَلَى ضَيَاعِ الفُرْصَةِ فِي التَّزَوُّدِ لِلْمَعَادِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: فَرِيدٌ وَحِيدُ القَبْرِ:

هُوَ مَآلُ كُلِّ حَيٍّ؛ فَالقَبْرُ بَيْتُ الوَحْدَةِ وَمَنْزِلُ الغُرْبَةِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «**لَوْ عَلِمَ العَبْدُ أَنَّهُ سَيُسْجَنُ فِي قَبْرِهِ وَحِيداً فَرِيداً، لَأَمْضَى لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ فِي الِاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ الحَبْسِ، فَلَا مُؤْنِسَ هُنَاكَ إِلَّا العَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي يَأْتِي فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ**». [بَدَائِعُ الفَوَائِدِ لِابْنِ القَيِّمِ، دَارُ عَالَمِ الفَوَائِدِ، (٣/ ١١٩٢)].

قَوْلُهُ: يَا أَسَفَا عَلَى الفِرَاقِ بِلَا عَمَلٍ:

وَهَذَا هُوَ دَاءُ "طُولِ الأَمَلِ" الَّذِي يُنْسِي الإِنْسَانَ أَنَّ السَّفَرَ طَوِيلٌ وَالزَّادَ قَلِيلٌ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ لِطُولِ الأَمَلِ، فَيَنْزِلُ بِهِ المَوْتُ وَهُوَ فَرِيدٌ فِي لَحْدِهِ، فَيَقُولُ: يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ». [جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَمِ لِابْنِ رَجَبٍ، دَارُ ابْنِ الجَوْزِيِّ، (٢/ ٣٨٥)].

قَوْلُهُ: يُزَوِّدُنِي:

يُذَكِّرُ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَةُ: ١٩٧].

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "صَحِيحِهِ" مَرْفُوعًا: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الزَّكَاةِ: ١٤١٣].

كَانَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «النَّاسُ فِي غَفْلَةٍ، وَالمَوْتُ يَطْلُبُهُمْ، وَالقَبْرُ يُنَادِيهِمْ: أَنَا بَيْتُ الوَحْدَةِ، أَنَا بَيْتُ الغُرْبَةِ، فَمَنْ جَاءَنِي بِزَادٍ أَكْرَمْتُهُ، وَمَنْ جَاءَنِي فَرِيداً بِلَا عَمَلٍ أَوْحَشْتُهُ». [حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نُعَيْمٍ، (٩/ ١٨٠)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "صَـرْخَةُ تَنْبِيـهٍ" لِكُـلِّ ذِي لُـبٍّ؛ فَـإِنَّ الفِـرَاقَ حَـتْمٌ، وَالوَحْدَةَ فِي القَبْرِ حَقٌّ، وَالحَسْرَةَ عِنْدَ لِقَاءِ المَلَكَيْنِ لَا تَنْفَعُ.

فَـاللهَ اللهَ فِـي اسْـتِعْمَالِ العُمُـرِ فِـي الطَّاعَـةِ، لِيَكُـونَ عَمَلُـكَ هُـوَ "الـزَّادَ" الَّـذِي يُبَلِّغُـكَ رِضْـوَانَ اللهِ، وَيَجْعَـلُ مِـنْ وَحْـدَتِكَ فِـي القَبْـرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ.

هول القبر ووحشته

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَهَـالَنِي صُـورَةٌ فِـي العَـيْنِ إِذْ نَظَـرَتْ ۞ مِـنْ هَـوْلِ مَـا قَـدْ كَـانَ أَدْهَشَـنِي

هَـذَا البَيْـتُ يَنْقُلُنَـا إِلَـى مَقَـامِ "الـذُّهُولِ وَالرَّوْعَـةِ" عِنْـدَ مُعَايَنَـةِ بَـدْءِ الحَيَـاةِ البَرْزَخِيَّـةِ، حَيْـثُ تَنْكَشِـفُ الحُجُـبُ وَيَـرَى المَيِّـتُ مَـا لَـمْ يَكُنْ فِي حِسْبَانِهِ مِنْ أَهْوَالِ المَطْلَعِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَهَالَنِي صُورَةٌ:

وَ: أَهْـوَالُ المَطْلَـعِ، يُشِـيرُ إِلَـى مَـا يَسْـتَقْبِلُهُ المَيِّـتُ مِـنْ مَنَـاظِرِ الآخِرَةِ الَّتِي تَذْهَلُ عِنْدَهَا العُقُولُ.

قَـالَ الإِمَـامُ ابْـنُ القَـيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا انْكَشَفَ الغِطَـاءُ لِلْمَيِّـتِ، رَأَى مِـنْ أَهْـوَالِ المَطْلَـعِ مَـا لَا يَقْـدِرُ قَـدْرَهُ إِلَّا اللهُ، فَيُـذْهَلُ عَـنْ كُـلِّ مَـا كَـانَ يَشْغَلُهُ فِـي الـدُّنْيَا، وَيَصِـيرُ هَمُّـهُ كُلُّـهُ فِيمَـا اسْـتَقْبَلَهُ مِـنْ غَيْـبِ اللهِ». [الرُّوحُ لِابْنِ القَيِّمِ، دَارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، ص: ٧٤].

قَوْلُهُ: فِي العَيْنِ إِذْ نَظَرَتْ:

يُصَدِّقُهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «البَصَرُ الحَدِيدُ هُوَ الَّذِي يَرَى بِهِ المَيِّتُ مَا كَانَ مَحْجُوبًا عَنْهُ، فَيَرَى المَلَائِكَةَ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، وَهَذَا المَنْظَرُ هُوَ الَّذِي يُذْهِلُ العَبْدَ وَيُرَوِّعُهُ».

[أَهْوَالُ القُبُورِ لِابْنِ رَجَبٍ، دَارُ الكِتَابِ العَرَبِيِّ، ص: ٣٨].

قَوْلُهُ: مَا قَدْ كَانَ أَذْهَلَنِي:

يُوَافِقُ مَا رُوِيَ عَنْ هَوْلِ القَبْرِ كَأَوَّلِ مَنَازِلِ الآخِرَةِ.

مَا رَوَاه الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». [سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ، كِتَابُ الزُّهْدِ، رَقْمُ: ٢٣٠٨، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ].

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ شَيْءٍ هَيِّنٌ إِلَّا هَوْلُ المَطْلَعِ، وَالسُّؤَالُ فِي القَبْرِ، فَإِنَّهُ الذُّهُولُ الَّذِي لَا يُوصَفُ، فَنَسْأَلُ اللهَ التَّثْبِيتَ». [طَبَقَاتُ الحَنَابِلَةِ لِابْنِ أَبِي يَعْلَى، (١/ ١٧٤)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ يُصَوِّرُ لَحْظَةَ "الصَّدْمَةِ اليَقِينِيَّةِ"؛ حَيْثُ تَنْتَهِي الظُّنُونُ وَتَبْدَأُ العِيَانُ، فَمَا كَانَ الإِنْسَانُ يَسْمَعُهُ فِي الدُّنْيَا خَبَراً، صَارَ يَرَاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ نَظَراً. وَاللَّبِيبُ مَنْ أَعْمَلَ عَيْنَهُ فِي تَدَبُّرِ الآيَاتِ اليَوْمَ، لِيَسْلَمَ مِنْ ذُهُولِ النَّظَرِ إِلَى الأَهْوَالِ غَداً.

الفزع من منكر ونكير

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

مِنْ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ مَا أَقُولُ لَهُمْ ۞ قَدْ هَالَنِي أَمْرُهُمْ جِدًّا فَأَفْزَعَنِي

هَذَا البَيْتُ يَنْقُلُنَا إِلَى مَقَامِ "الِامْتِحَانِ الأَكْبَرِ" فِي القَبْرِ، وَهُوَ سُؤَالُ المَلَكَيْنِ (مُنْكَرٍ، وَنَكِيرٍ)، حَيْثُ تَتَوَارَى الفَصَاحَةُ وَتَغِيبُ القُوَّةُ، وَلَا يَنْطِقُ اللِّسَانُ إِلَّا بِمَا عَمَرَ القَلْبَ مِنَ الإِيمَانِ.

الشَّرْحُ:

صِفَةُ المَلَكَيْنِ (مُنْكَر، وَنَكِير):

قَوْلُهُ: مِنْ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ:

يُشِيرُ إِلَى المَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ يَنْزِلَانِ عَلَى المَيِّتِ لِسُؤَالِهِ.

رَوَى الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ النَّكِيرُ**». [سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ: ١٠٧١، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ].

قَوْلُهُ: قَدْ هَالَني أَمْرُهُمْ جِدّاً فَأَفْزَعَنِي:

يُصَوِّرُ حَالَ العَبْدِ أَمَامَ هَيْبَةِ المَلَائِكَةِ، حَيْثُ يُنْتَهَرُ المَيِّتُ وَيُجْلَسُ لِلسُّؤَالِ.

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ الطَّوِيلِ: «فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟». [مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، رَقْمُ: ١٨٥٣٤].

قَوْلُهُ: مَا أَقُولُ لَهُمْ:

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَقَامِ الِاضْطِرَابِ الَّذِي لَا يُنْجِي مِنْهُ إِلَّا تَثْبِيتُ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّؤَالُ فِي القَبْرِ حَقٌّ، وَالفَزَعُ مِنْهُ طَبِيعَةٌ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ يُنْزِلُ اللهُ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ، فَيُجِيبُ بِلِسَانٍ ثَابِتٍ، أَمَّا المُرْتَابُ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ». [الرُّوحُ لِابْنِ القَيِّمِ، ص: ٧٥].

كَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ يَقُولُ: «تَذَكَّرْ يَا ابْنَ آدَمَ لَيْلَةً تَبِيتُ فِيهَا فِي القَبْرِ، لَمْ تَبِتْ لَيْلَةً قَطُّ مِثْلَهَا، يَأْتِيكَ فِيهَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، فَيَا وَيْلَكَ إِنْ لَمْ يُثَبِّتْكَ مَوْلَاكَ». [صِفَةُ الصَّفْوَةِ لِابْنِ الجَوْزِيِّ، (٢/ ٢١٢)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ يُصَوِّرُ "اللَّحْظَةَ الَّتِي لَا مَفَرَّ مِنْهَا"؛ حَيْثُ يَقِفُ العَبْدُ أَمَامَ سُؤَالٍ لَا غِشَّ فِيهِ. وَالمُؤْمِنُ الحَقُّ هُوَ مَنْ يُعِدُّ لِهَذَا السُّؤَالِ جَوَابًا بِعَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا، لِيَكُونَ فَوْزُهُ عِنْدَ الفَزَعِ، وَأَمْنُهُ عِنْدَ الرَّوْعِ، بِمَنِّ اللهِ وَكَرَمِهِ.

سؤال الملكين

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَأَقْعَدُونِي وَجَدُّوا فِي سُؤَالِهِمْ ۞ مَالِي سِوَاكَ إِلَهِي مَنْ يُخَلِّصُنِي

هَذَا البَيْتُ هُوَ ذِرْوَةُ "الِافْتِقَارِ وَالِاضْطِرَارِ"، حَيْثُ يَصِلُ المَيِّتُ إِلَى لَحْظَةٍ يَنْقَطِعُ فِيهَا الرَّجَاءُ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَيَتَحَقَّقُ فِيهَا مَعْنَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ بِالِالتِجَاءِ إِلَى الخَالِقِ سُبْحَانَهُ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَأَقْعَدُونِي:

حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فِي السُّنَّةِ، حَيْثُ تُعَادُ الرُّوحُ إِلَى الجَسَدِ لِيَجْلِسَ المَيِّتُ وَيُجِيبَ عَلَى الِامْتِحَانِ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ... أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الجَنَائِزِ، رَقْمُ: ١٣٣٨].

قَوْلُهُ: وَجَدُّوا فِي سُؤَالِهِمُ:

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ سُؤَالَ المَلَكَيْنِ لَيْسَ سُؤَالاً عَابِراً، بَلْ هُوَ فِتْنَةٌ وَاخْتِبَارٌ يَتَمَيَّزُ فِيهِ الصَّادِقُ مِنَ المُرْتَابِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِتْنَةُ القَبْرِ جِدٌّ، وَالسُّؤَالُ فِيهِ حَقٌّ، وَلَا يَثْبُتُ هُنَاكَ إِلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ، فَاللهَ اللهَ فِي الِاسْتِعْدَادِ لِتِلْكَ المَسْأَلَةِ». [التَّمْهِيدُ لِابْنِ عَبْدِ البَرِّ، (٩/ ٢٣١)].

قَوْلُهُ: مَالِي سِوَاكَ إِلَهِي مَنْ يُخَلِّصُنِي:

هُوَ مَقَامُ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ وَالتَّثْبِيتَ بِيَدِ المَلِكِ الحَقِّ وَحْدَهُ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنْفَعُ مَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِي قَبْرِهِ إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ، فَإِذَا أُقْعِدَ لِلسُّؤَالِ وَشَاهَدَ أَهْوَالَ القَبْرِ، لَمْ يَنْفَعْهُ إِلَّا صِدْقُ لُجُوئِهِ إِلَى مَوْلَاهُ، وَذَلِكَ حِينُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ». [إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٥٤)].

كَانَ الإِمَامُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «إِنَّكَ تَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتَدْخُلُ القَبْرَ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ، وَتُحَاسَبُ وَحْدَكَ، فَلَا يَغُرَّنَّكَ كَثْرَةُ مَنْ حَوْلَكَ، فَمَنْ لَمْ يُخَلِّصْهُ رَبُّهُ فَلَا خَلَاصَ لَهُ».

[الزُّهْدُ لِلإِمَامِ أَحْمَدَ، ص: ٢٦٨].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ يُمَثِّـلُ "**خُلَاصَـةَ العَقِيـدَةِ**"؛ فَالإِنْسَـانُ بَـيْنَ يَـدَيِ المَلَكَـيْنِ يَفْقِـدُ جَاهَـهُ وَمَالَـهُ، وَلَا يَبْقَـى لَـهُ إِلَّا "الله". فَمَـنْ كَـانَ اللهُ وَجْهَتَـهُ فِـي الـدُّنْيَا، كَـانَ اللهُ مُخَلِّصَـهُ فِـي القَبْـرِ. فَـاللَّهُمَّ ثَبِّتْنَـا بِـالقَوْلِ الثَّابِتِ، وَأَلْهِمْنَا الجَوَابَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الأَسْبَابِ.

اللجوء إلى الله بالتثبيت

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فَـامْنُنْ عَلَـيَّ بِعَفْـوٍ مِنْـكَ يَـا أَمَلِـي ۞ فَـإِنَّنِي مُوثَـقٌ بِالـذَّنْبِ مُرْتَهَنِـي

ثُـمَّ ذَكَـرَ حَالَـةَ الأَهْـلِ، الرَّجُـلُ مِسْكِينٌ فِي قَبْـرِهِ عِنْـدَ مُنْكَـرٍ وَنَكِيـرٍ يُنَـازِعُ السُّـؤَالَ وَالجَـوَابَ، وَمَـا يَكُـونُ فِـي القَبْـرِ، وَالأَهْـلُ بَـدَأُوا يُفَكِّرُونَ فِي المَـالِ؛ هَـذِهِ مِـنْ مَالِـهِ، هَـذِهِ مِـنْ تَرِكَتِـهِ، وَهَـذِهِ، وهـذه ... هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ مَقَـامُ "**الِاسْـتِعْطَافِ وَالِافْتِقَـارِ**"، حَيْـثُ يَتَجَـرَّدُ العَبْـدُ مِـنْ كُـلِّ دَعْـوَى لِيَعْتَـرِفَ بِحَقِيقَـةِ ضَـعْفِهِ وَقُـوَّةِ رَجَائِـهِ فِـي عَفْـوِ اللهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: يَا أَمَلِي:

يُشِـيرُ إِلَـى أَنَّ الرَّجَـاءَ فِـي اللهِ هُـوَ آخِـرُ مَـا يَبْقَـى لِلْعَبْـدِ بَعْـدَ انْقِطَـاعِ كُلِّ حِيلَةٍ، وَهُوَ مِصْدَاقُ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ عِنْدَ المَوْتِ.

رَوَى الإِمَـامُ مُسْـلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ: عَـنْ جَـابِرِ بْـنِ عَبْـدِ اللهِ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَـا قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَبْـلَ مَوْتِـهِ بِـثَلَاثٍ يَقُـولُ: «**لَا**

يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ». [صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الجَنَّةِ: ٢٨٧٧].

قَوْلُهُ: فَإِنِّي مُرْتَهَنٌ بِالذَّنْبِ:

مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وَمَعْنَاهُ أَنَّ النَّفْسَ مَحْبُوسَةٌ عَنِ النَّعِيمِ أَوْ مَحْبُوسَةٌ فِي العَذَابِ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَفَتْهُ مِنَ الخَطَايَا.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَعْنَى "رَهِينَةٌ" أَيْ: مَحْبُوسَةٌ بِعَمَلِهَا، فَالإِنْسَانُ مُرْتَهَنٌ عِنْدَ اللهِ بِكُلِّ عَمَلٍ قَدَّمَهُ، فَلَا يُفَكُّ رَهَانُهُ إِلَّا بِعَفْوِ اللهِ أَوْ بِمَا قَدَّمَ مِنْ صَالِحٍ». [جَامِعُ البَيَانِ لِلطَّبَرِيِّ، (٢٣/ ٤٥٥)].

قَوْلُهُ: فَامْنُنْ عَلَيَّ بِعَفْوٍ:

فِيهِ إِقْرَارٌ بِأَنَّ العَفْوَ لَيْسَ اسْتِحْقَاقًا لِلْعَبْدِ، بَلْ هُوَ فَضْلٌ وَمِنَّةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «العَبْدُ دَائِمًا بَيْنَ نِعْمَةٍ مِنَ اللهِ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى شُكْرٍ، وَذَنْبٍ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اسْتِغْفَارٍ، فَإِذَا نَزَلَ بِالقَبْرِ انْقَطَعَ الشُّكْرُ وَبَقِيَ الِافْتِقَارُ إِلَى العَفْوِ، فَهُوَ هُنَاكَ أَسِيرُ

ذَنْبِهِ، وَلَا يُطْلِقُ الأَسِيرَ إِلَّا عَفْوُ القَدِيرِ». [مَدَارِجُ السَّالِكِينَ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ١٩٨)].

كَانَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ❁ جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ ❁ تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

[دِيوَانُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ هُوَ "بَابُ النَّجَاةِ"؛ فَالِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ (الِارْتِهَانِ) هُوَ أَوَّلُ خُطُوَاتِ التَّوْبَةِ، وَالِالتِجَاءُ إِلَى (الأَمَلِ) فِيمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ مِفْتَاحُ الرَّحْمَةِ. فَاللَّهُمَّ يَا مَنْ لَا يُخَيِّبُ فِيهِ الرَّجَاءَ، فُكَّ رِهَانَنَا بِعَفْوِكَ، وَلَا تُقَيِّدْنَا بِآثَامِنَا بَعْدَ الرَّحِيلِ.

نسيان الأهل لميتهم وقسمة الميراث

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

تَقَاسَمَ الأَهْلُ مَالِي بَعْدَمَا انْصَرَفُوا ۞ وَصَارَ وِزْرِي عَلَى ظَهْرِي فَأَثْقَلَنِي

هَذَا البَيْتُ هُوَ خَاتِمَةُ المَشْهَدِ الدُّنْيَوِيِّ وَبِدَايَةُ الحِسَابِ الأُخْرَوِيِّ، حَيْثُ تَنْفَصِمُ العَلَاقَةُ تَمَامًا بَيْنَ المَرْءِ وَمَا مَلَكَ، فَيَصِيرُ الغُنْمُ لِغَيْرِهِ وَالغُرْمُ عَلَيْهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: تَقَاسَمَ الأَهْلُ مَالِي:

هُوَ تَحْقِيقٌ لِسُنَّةِ اللهِ فِي المِيرَاثِ؛ فَمَا جَمَعَهُ الإِنْسَانُ فِي دَهْرِهِ يَصِيرُ لِوَرَثَتِهِ فِي لَحْظَةِ مَوْتِهِ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الرِّقَاقِ، رَقْمُ: ٦٤٤٢].

قَوْلُهُ: وَصَارَ وِزْرِي عَلَى ظَهْرِي:

يُصَوِّرُ بَقَاءَ التَّبِعَاتِ وَالآثَامِ مَعَ المَيِّتِ وَحْدَهُ، وَهُوَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا مِسْكِينُ، تَجْمَعُ المَالَ لِغَيْرِكَ، وَتَحْمِلُ وِزْرَهُ عَلَى ظَهْرِكَ! يَتَهَنَّى الوَرَثَةُ بِمَا جَمَعْتَ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَأَنْتَ المُرْتَهَنُ فِي قَبْرِكَ بِمَا اكْتَسَبْتَ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ هُوَ المَغْبُونُ؟». [جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَمِ لِابْنِ رَجَبٍ، (٢/ ٣٨٦)].

قَوْلُهُ: فَأَثْقَلَنِي:

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى شِدَّةِ الحِسَابِ عَلَى المَالِ (مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ)؛ فَالإِنْسَانُ يَحْزَنُ لِفِرَاقِ مَالِهِ، وَالأَشَدُّ حُزْنًا أَنْ يُحَاسَبَ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَعُدْ فِي يَدِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ... فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ، أَنَا مَالُكَ، فَيَثْقُلُ بِهِ ظَهْرُهُ وَيَطُوقُ عُنُقَهُ». [الرُّوحُ لِابْنِ القَيِّمِ، ص: ١٠٤].

كَانَ الإِمَامُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «بِئْسَ الرَّفِيقَانِ: الدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ، لَا يَنْفَعَانِكَ حَتَّى يُفَارِقَاكَ، فَإِذَا فَارَقَاكَ لِغَيْرِكَ بَقِيَ عَلَيْكَ حِسَابُهُمَا». [الزُّهْدُ لِلإِمَامِ أَحْمَدَ، ص: ٢٦١].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ يَرْسُمُ الحَقِيقَةَ العَارِيَةَ لِلدُّنْيَا؛ فَمَا جَمَعْتَهُ لَنْ يَدْخُلَ مَعَكَ القَبْرَ، كما قَالَ النبي ﷺ: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ» [أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ: ٦٥١٤، وَمُسْلِمٌ: ٢٩٦٠]، بَلْ سَيَبْقَى مالك لِلْوَرَثَةِ يَتَنَعَّمُونَ بِهِ، بَيْنَمَا تَبْقَى أَنْتَ رَهِينَ "الكَيْفِيَّةِ" الَّتِي جَمَعْتَهُ بِهَا. فَاللَّبِيبُ مَنْ جَعَلَ مَالَهُ زَاداً لِآخِرَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ وِزْراً يَثْقُلُ بِهِ كَاهِلُهُ عِنْدَ القَاءِ اللهِ.

زواج الزوجة بدلا من زوجها

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَاسْتَبْدَلَتْ زَوْجِي بَعْلًا لَهَا بَدَلِي ۞ وَحَكَّمَتْهُ فِي الأَمْوَالِ وَالسَّكَنِ

هَذَا البَيْتُ يُصَوِّرُ "مُنْتَهَى الِانْقِطَاعِ" عَنِ الدُّنْيَا، حَيْثُ تَمْضِي الحَيَاةُ وَيُسَدُّ الفَرَاغُ الَّذِي تَرَكَهُ الرَّاحِلُ بِغَيْرِهِ، فَيَصِيرُ مَنْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ شَرِيكًا لِغَيْرِهِ فِي مَالِهِ وَدَارِهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَاسْتَبْدَلَتْ زَوْجِي بَعْلًا لَهَا بَدَلِي:

حَقِيقَةٌ جَارِيَةٌ؛ فَالزَّوْجَةُ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا يَحِلُّ لَهَا الزَّوَاجُ، وَتَنْتَهِي عِصْمَةُ المَيِّتِ عَنْهَا، فَتَبْدَأُ حَيَاةً جَدِيدَةً مَعَ غَيْرِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَا مَغْرُوراً بِمَنْ يُحِبُّهُ، لَوْ كُشِفَ لَكَ الغِطَاءُ لَرَأَيْتَ حَبِيبَكَ قَدْ صَارَ لِغَيْرِكَ، وَأَنْتَ فِي لَحْدِكَ لَا تُذْكَرُ، فَمَا أَقْبَحَ النِّسْيَانَ بَعْدَ الإِحْسَانِ!». [المُدْهِشُ لِابْنِ الجَوْزِيِّ، ص: ١٩٨].

قَوْلُهُ: وَحَكَّمَتْهُ فِي الأَمْوَالِ وَالسَّكَنِ:

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ "**البَعْلَ الجَدِيدَ**" قد سَيَسْكُنُ الدَّارَ الَّتِي بَنَاهَا المَيِّتُ، وَيَنْفِقُ مِنَ المَالِ الَّذِي جَمَعَهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ العِبَرِ لِمَنْ كَانَ يَبْخَلُ بِخَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا.

رَوَى الإِمَامُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا: فِي "ذَمِّ الدُّنْيَا" أَنَّ بَعْضَ الحُكَمَاءِ نَظَرَ إِلَى دَارٍ فَقَالَ: «**مَا أَسْرَعَ خَرَابَكِ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ سَكَنَكِ، وَمَا أَقَلَّ بَقَاءَ مَنْ بَنَاكِ! مَاتَ رَبُّهَا وَتَزَوَّجَتْ زَوْجُهُ، وَأَكَلَ مَالَهُ عَدُوُّهُ**». [ذَمُّ الدُّنْيَا لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا، ص: ٤٢].

يُؤَكِّدُ هَذَا البَيْتُ أَنَّ المَيِّتَ يَخْرُجُ مِنَ الحِسْبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ تَمَامًا، بَيْنَمَا يَبْقَى عَلَيْهِ حِسَابُ "**الأَمْوَالِ وَالسَّكَنِ**" الَّتِي يَتَقَلَّبُ فِيهَا الوَرَثَةُ وَأَزْوَاجُهُمْ.

قَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**تَفَكَّرْ يَا مِسْكِينُ، إِذَا جَدَّدَتِ الزَّوْجَةُ لَهَا بَعْلًا، وَقَسَمَ الوَرَثَةُ مَالَكَ، وَنَسِيَ النَّاسُ اسْمَكَ، فَمَنْ لَكَ فِي القَبْرِ؟ لَا يَنْفَعُكَ إِلَّا مَا قَدَّمْتَهُ لِنَفْسِكَ لَا مَا جَمَعْتَهُ لِغَيْرِكَ**». [التَّذْكِرَةُ فِي أَحْوَالِ المَوْتَى لِلْقُرْطُبِيِّ، ص: ٢٢].

كَانَ الإِمَامُ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا -ذِكْرَ اللهِ-، جَمَعُوا لِغَيْرِهِمْ، وَتَرَكُوا لِأَنْفُسِهِمُ الحِسَابَ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَفَعَ غَيْرُهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، وَتَزَوَّجَ غَيْرُهُمْ نِسَاءَهُمْ، وَبَقُوا هُمْ فِي الضِّيقِ فَرِيدِينَ». [حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نُعَيْمٍ، (٢/ ٣٥٨)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ هُوَ "القَوْلُ الفَصْلُ" فِي حَقِيقَةِ التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا؛ فَالَّذِي كُنْتَ تَمْنَعُ لِأَجْلِهِ الحُقُوقَ، وَتَبْنِي لَهُ الحُصُونَ، سَيَصِيرُ مُلْكًا لِغَيْرِكَ، وَرُبَّمَا لِمَنْ لَا يُحِبُّكَ! وَالَّتِي كُنْتَ تَخْشَى عَلَيْهَا الضَّيَاعَ، سَتَجِدُ فِي بَعْلٍ آخَرَ مَلَاذاً. فَاجْعَلْ حُبَّكَ الأَوَّلَ وَالآخِرَ لِمَنْ لَا يَمُوتُ، وَلَا يَنْسَى عَبْدَهُ فِي وَحْدَةِ اللَّحْدِ.

ذهاب الأموال والأولاد

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَصَيَّرَتْ وَلَدِي عَبْدًا لِيَخْدُمَهَا ۞ وَصَارَ مَالِي لَهُمْ حِلًّا بِلَا ثَمَنِ

هَذَا البَيْتُ يُصَوِّرُ "الذِّلَّةَ وَالضَّيَاعَ" الَّذِي قَدْ يَحِلُّ بِمَا تَرَكَهُ المَيِّتُ خَلْفَهُ، حَيْثُ تَتَبَدَّلُ الأَحْوَالُ، فَيَصِيرُ العَزِيزُ ذَلِيلًا، وَيُؤْكَلُ المَالُ الَّذِي جُمِعَ بِالشَّقَاءِ صَفْوًا عَفْوًا لِلْآخَرِينَ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَصَيَّرَتْ وَلَدِي عَبْدًا لِيَخْدُمَهَا:

وَفِي رِوَايَةٍ: **عَبْدًا لِيَخْدُمَهُ** -أَيِ للبَعْلَ الجَدِيدَ-؛ هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ ضَيَاعِ كَرَامَةِ الأَوْلَادِ بَعْدَ فَقْدِ الأَبِ السَّنَدِ، حَيْثُ يَتَحَكَّمُ فِيهِمُ الأَغْرَابُ، وَتَزُولُ المَهَابَةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ بِوُجُودِ وَالِدِهِمْ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لَوْ رَأَى المَيِّتُ مَا يَصْنَعُهُ النَّاسُ بَعْدَهُ بِوَلَدِهِ وَمَالِهِ، لَأَيْقَنَ أَنَّ طُولَ كَدِّهِ فِي الدُّنْيَا كَانَ خَسَارَةً، فَالَّذِي كَانَ يُرَبَّى فِي العِزِّ صَارَ فِي الذُّلِّ، وَالَّذِي كَانَ يُخْدَمُ صَارَ خَادِمًا». [أَهْوَالُ القُبُورِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ١٤٢].

قَوْلُهُ: وَصَارَ مَالِي لَهُمْ حِلًّا بِلَا ثَمَنٍ:

يُلَخِّصُ مَأْسَاةَ جَامِعِ المَالِ؛ فَهُوَ حَلَالٌ لِلْوَرَثَةِ يَتَمَتَّعُونَ بِهِ دُونَ عَنَاءٍ بِلَا ثَمَنٍ، لَكِنَّ المَيِّتَ هُوَ المُطَالَبُ بِحِسَابِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ.

رَوَى الإِمَامُ البَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي وَصْفِ الدُّنْيَا: «حَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ... يَجْمَعُهُ المَرْءُ بِالمَشَقَّةِ، وَيَأْكُلُهُ الوَارِثُ بِالرَّاحَةِ، فَإِنْ كَانَ طَائِعًا فَلِلْوَارِثِ الأَجْرُ وَعَلَيْكَ الوِزْرُ». [الزُّهْدُ الكَبِيرُ لِلْبَيْهَقِيِّ، ص: ١٥٦].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجْمَعُ العَبْدُ المَالَ لِيُغْنِيَ وَلَدَهُ، وَلَا يَدْرِي أَنَّ ذَلِكَ المَالَ قَدْ يَكُونُ سَبَبَ طُغْيَانِهِمْ أَوْ ذُلِّهِمْ، فَمَنْ آثَرَ مَالَ دُنْيَاهُ عَلَى عَمَلِ أُخْرَاهُ، تَرَكَ مَالَهُ لِمَنْ لَا يَحْمَدُهُ، وَقَدِمَ عَلَى مَنْ لَا يَعْذِرُهُ». [الفَوَائِدُ لِابْنِ القَيِّمِ، ص: ٨٨].

كَانَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُصِيبَتَانِ لِلْمَرْءِ فِي مَالِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِمَا: يُؤْخَذُ مِنْهُ كُلُّهُ، وَيُحَاسَبُ عَلَيْهِ كُلُّهُ!». [سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ، (١٣/ ١٥)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ يَكْسِـرُ جِـدَارَ الـوَهْمِ الَّـذِي يَبْنِيـهِ الإِنْسَـانُ حَـوْلَ مُسْـتَقْبَلِ أَبْنَائِـهِ بِالمَـالِ وَحْـدَهُ؛ فَالْمَـالُ لَا يَحْمِـي الوَلَـدَ بَعْـدَ مَوْتِـكَ، بَلْ قَدْ يُصْبِحُ نَقْمَةً عَلَيْهِ أَوْ يُؤْخَذُ مِنْهُ عَنْوَةً.

وَالـرَّابِحُ مَـنْ تَـرَكَ لِأَوْلَادِهِ **"تَقْـوَى اللهِ عـز وجـل"** زَاداً، وَقَـدَّمَ لِنَفْسِهِ مِنَ المَالِ مَا يَنْفَعُهُ فِي يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

التحذير من الدنيا وغدرها

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فَـــلَا تَغُرَّنَّـــكَ الـــدُّنْيَا وَزِينَتُهَـــا ۞ وَانْظُـرْ إِلَـى فِعْلِهَـا فِـي الأَهْـلِ وَالـوَطَنِ

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "مَحَـلُّ بَيْـتُ القَصِـيدِ" وَخُلَاصَـةُ المَوْعِظَـةِ؛ حَيْـثُ يَنْتَقِـلُ النَّـاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ مِـنَ الوَصْـفِ التَّصْـوِيرِيِّ لِلْمَـوْتِ إِلَـى التَّحْـذِيرِ المِبَاشِـرِ مِـنْ "خِـدَاعِ الـدُّنْيَا"، مُسْتَشْـهِدًا بِـالوَاقِعِ المَلْمُوسِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: فَلَا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا:

هـذا هُـوَ مِحْـوَرُ القُـرْآنِ فِـي التَّعَامُـلِ مَـعَ الحَيَـاةِ، كَمَـا فِـي قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَـلَا تَغُـرَّنَّكُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا وَلَا يَغُـرَّنَّكُم بِـاللهِ الْغَـرُورُ﴾ [لقمـان: ٣٣]. وقـال الله تعـالى: ﴿اعْلَمُـوا أَنَّمَـا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا لَعِـبٌ وَلَهْـوٌ وَزِينَـةٌ وَتَفَـاخُرٌ بَيْـنَكُمْ وَتَكَـاثُرٌ فِـي الْأَمْـوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَـلِ غَيْـثٍ أَعْجَـبَ الْكُفَّـارَ نَبَاتُـهُ ثُـمَّ يَهِـيجُ فَتَـرَاهُ مُصْـفَرًّا ثُـمَّ يَكُـونُ حُطَامًـا وَفِـي الْآخِـرَةِ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ وَمَغْفِـرَةٌ مِّـنَ اللهِ وَرِضْـوَانٌ وَمَـا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة الحديد: ٢٠].

المَـالُ وَالبَنُـونَ زِينَـةٌ، مَعْرُوفَـةُ الزِّينَـةِ إِلَـى أَيْـنَ مَآلُهَـا؟ إِلَـى الخَـرَابِ وَالِانْتِهَـاءِ. ﴿الْمَـالُ وَالْبَنُـونَ زِينَـةُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَالْبَاقِيَـاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [سورة الكهف: ٤٦].

﴿زُيِّـنَ لِلنَّـاسِ حُـبُّ الشَّهَوَاتِ مِـنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِـينَ وَالْقَنَـاطِيرِ الْمُقَنطَـرَةِ مِـنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّـةِ وَالْخَيْـلِ الْمُسَـوَّمَةِ وَالْأَنْعَـامِ وَالْحَـرْثِ ذَٰلِـكَ مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا﴾ هَـذَا كُلُّـهُ مَتَـاعُ الحَيَـاةِ الـدُّنْيَا، ﴿وَاللَّهُ عِنـدَهُ حُسْـنُ الْمَـآبِ﴾. قَـالَ جَـلَّ وَعَـلَا بَعْـدَ ذَلِـكَ: ﴿قُـلْ أَؤُنَبِّـئُكُم بِخَيْـرٍ مِّـن ذَٰلِكُـمْ﴾ [سـورة آل عمـران: ١٤-١٥].، والأدلـة في هذا الباب كثيرة.

قَـالَ الإِمَـامُ ابْـنُ الجَـوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الـدُّنْيَا عَـرُوسٌ تُبْـدِي لِلْعُيُـونِ زِينَتَهَـا لِتَخْطِـفَ القُلُـوبَ، فَـإِذَا اسْتَسْـلَمَ لَهَـا العَبْـدُ ذَبَحَتْـهُ بِسِـكِّينِ الفَنَـاءِ، فَمَـنْ نَظَـرَ إِلَيْـهِ بِعَـيْنِ الحَقِيقَـةِ عَلِـمَ أَنَّ زِينَتَهَـا سَـرَابٌ». [صَـيْد الخَاطِرِ لِابْنِ الجَوْزِيِّ، ص: ١٢٤].

قَوْلُهُ: وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهَا فِي الأَهْلِ وَالوَطَنِ:

دَعْـوَةٌ لِلسَّـيْرِ فِـي الأَرْضِ وَالتَّفَكُّـرِ فِـيمَنْ مَلَكُـوا وَبَنَـوْا ثُـمَّ رَحَلُـوا، وَهُـوَ مِصْـدَاقُ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَكَـمْ أَهْلَكْنَـا قَـبْلَهُم مِّـن قَـرْنٍ هُـمْ أَشَـدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

قَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَوْ تَفَكَّرَ العَبْدُ فِي دِيَارِ مَنْ كَانُوا قَبْلَهُ، وَكَيْفَ خَرِبَتْ، وَأَجْسَادِهِمْ وَكَيْفَ بَلِيَتْ، لَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لَا تَصْلُحُ لِلْبَقَاءِ، وَأَنَّ مَنْ رَكَنَ إِلَى الأَهْلِ وَالوَطَنِ نَسِيَ مَنْزِلَ الغُرْبَةِ وَاللَّحْدِ». [التَّذْكِرَةُ فِي أَحْوَالِ المَوْتَى لِلْقُرْطُبِيِّ، ص: ١٥].

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "الزُّهْدِ" عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ عَلَى القُبُورِ فَيَقُولُ: «أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمُونَ الذِّمَارَ؟ أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمُرُونَ الأَوْطَانَ؟ فَرَّقَتِ الدُّنْيَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِهِمْ، وَسَكَنُوا تَحْتَ التُّرَابِ بَعْدَ القُصُورِ». [الزُّهْدُ لِلإِمَامِ أَحْمَدَ، ص: ٢٨٤].

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطَنَا ۞ طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا

نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ۞ أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا ۞ صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

[دِيوَانُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ يَدْعُوكَ لِتَكُونَ "بَصِيرًا"؛ فَالغَافِلُ يَنْظُرُ إِلَى "زِينَةِ الدُّنْيَا"، وَالعَاقِلُ يَنْظُرُ إِلَى "أَفْعَالِهَا". فَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُبْقِ

عَلَى مَلِكٍ، وَلَمْ تَرْحَمْ أَهْلًا، وَلَمْ تَدُمْ لِوَطَنٍ، عَلِمْتَ أَنَّ الِاشْتِغَالَ بِهَا عَنِ الآخِرَةِ هُوَ عَيْنُ الخُسْرَانِ. فَاللَّهُمَّ اجْعَلِ الدُّنْيَا فِي أَيْدِينَا وَلَا تَجْعَلْهَا فِي قُلُوبِنَا.

مفارقة الدنيا لأصحابها

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَانْظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ۞ هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الحَنُوطِ وَالكَفَنِ

هَذَا البَيْتُ هُوَ "بُرْهَانُ الزُّهْدِ القَاطِعُ"، وَهُوَ تَقْرِيرٌ لِلْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا يَمْتَرِي فِيهَا اثْنَانِ؛ فَمَهْمَا بَلَغَ اتِّسَاعُ مُلْكِ الإِنْسَانِ، فَإِنَّ "نِهَايَةَ الِاسْتِهْلَاكِ" تَتَوَقَّفُ عِنْدَ خِرَقٍ بَيْضَاءَ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ القُطْنِ وَالكَفَنِ:

هُوَ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيْ: تَرَكْتُمُ الأَمْوَالَ وَالأَوْلَادَ وَمَا كُنْتُمْ تَفْتَخِرُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَجِئْتُمْ بِلَا مَالٍ وَلَا خَدَمٍ، لَيْسَ مَعَكُمْ إِلَّا أَعْمَالُكُمْ وَأَكْفَانُكُمْ». [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ لِابْنِ كَثِيرٍ، (٣/ ٢٩٨)].

قَوْلُهُ: مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا:

إِشَارَةٌ إِلَى الجَبَابِرَةِ وَالمُلُوكِ الَّذِينَ طَافُوا المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ.

رَوَى الإِمَامُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ "القُبُورِ" أَنَّ بَعْضَ الحُكَمَاءِ كَانَ يَقُولُ: «عَجِبْتُ لِمَنْ يَجْمَعُ مَالاً لَا يَأْكُلُهُ، وَيَبْنِي بَيْتًا لَا يَسْكُنُهُ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا الفُقَرَاءُ». [القُبُورُ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا، ص: ٦٤].

قَوْلُهُ: القُطْنِ وَالكَفَنِ:

فَالكَفَنُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ لَفَائِفَ بَيْضَاءَ مِنْ قُطْنٍ، وَلَا يُغَالَى فِيهِ لِأَنَّهُ لِلْبِلَى.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُسْتَحَبُّ الكَفَنُ فِي ثِيَابٍ بِيضٍ نَقِيَّةٍ مِنَ القُطْنِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كُفِّنَ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ يَمَانِيَّةٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ (قُطْنٍ)». [المُغْنِي لِابْنِ قُدَامَةَ، (٢/ ٣٣٨)].

لَمَّا حَضَرَتِ الوَفَاةُ هَارُونَ الرَّشِيدَ، أَمَرَ بِحَفْرِ قَبْرِهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩]، ثُمَّ قَالَ: يَا مَنْ لَا يَزُولُ مُلْكُهُ، ارْحَمْ مَنْ قَدْ زَالَ مُلْكُهُ. [سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ لِلذَّهَبِيِّ، (٩/ ٢٩٢)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ يَضَـعُ كُـلَّ أَمْـوَالِ العَـالَمِ فِـي كِفَّـةٍ، وَ"**الكَفَـنَ**" فِـي كِفَّـةٍ أُخْـرَى؛ فَتَـرْجَحُ كِفَّـةُ الكَفَـنِ لِأَنَّـهُ المِلْـكُ الوَحِيـدُ الحَقِيقِـيُّ الَّـذِي سَيَصْحَبُكَ إِلَى القَبْرِ.

فَمَـا بَـالُ العَبْـدِ يَتَهَالَـكُ عَلَـى "**مَـا لَا يَبْقَـى**"، وَيَتْـرُكُ التَّـزَوُّدَ لِمَـا "**لَا يَفْنَى**"؟

لَقَدْ أَصَبْتَ كَبِدَ الحَقِيقَةِ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ.

القناعة من الدنيا

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

خُـذِ القَنَاعَـةَ مِـنْ دُنْيَـاكَ وَارْضَ بِهَـا ۞ لَـوْ لَـمْ يَكُـنْ لَـكَ إِلَّا رَاحَـةُ البَـدَنِ

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "بَـابُ السَّـعَادَةِ المَنْسِـيُّ"؛ حَيْـثُ يُقَـدِّمُ النَّـاظِمُ وَصْـفَةً لِلرَّاحَـةِ النَّفْسِـيَّةِ وَالجَسَـدِيَّةِ، مِحْوَرُهَـا "القَنَاعَـةُ"، مُبَيِّنًـا أَنَّ كُـلَّ صِـرَاعَاتِ الـدُّنْيَا لَا تُسَـاوِي لَحْظَـةَ طُمَأْنِينَـةٍ يَسْـلَمُ فِيهَـا البَـدَنُ وَيَهْدَأُ فِيهَا البَالُ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: خُذِ القَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ:

وهـذا يتفـق مَـعَ التَّوْجِيـهِ النَّبَـوِيِّ الَّـذِي جَعَـلَ الغِنَـى غِنَـى الـنَّفْسِ لَا كَثْرَةَ العَرَضِ.

رَوَى الإِمَـامُ البُخَـارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـالَ: «لَيْـسَ الغِنَـى عَـنْ كَثْـرَةِ العَـرَضِ، وَلَكِـنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الرِّقَاقِ، رَقْمُ: ٦٤٤٦].

قَوْلُهُ: لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا رَاحَةُ البَدَنِ:

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ العَافِيَةَ وَالقُوتَ هُمَا جَوْهَرُ المِلْكِ الحَقِيقِيِّ.

رَوَى الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا». [سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ، كِتَابُ الزُّهْدِ، رَقْمُ: ٢٣٤٦، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ].

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

رَأَيْتُ القَنَاعَةَ رَأْسَ الغِنَى ۞ فَصِرْتُ بِذَيْلِهَا مُتَمَسِّكَا

فَلَا ذَا يَرَانِي عَلَى بَابِهِ ۞ وَلَا ذَا يَرَانِي بِهِ مُنْهَمِكَا

فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلَا دِرْهَمٍ ۞ أَمُرُّ عَلَى النَّاسِ شِبْهَ المَلِكَا

[دِيوَانُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ].

قَوْلُهُ: وَارْضَ بِهَا:

يَعْنِي أَنَّ الرِّضَا يَقْطَعُ دَابِرَ الكَدِّ المُضْنِي الَّذِي يَهْدِمُ الصِّحَّةَ طَلَبًا لِلْمَزِيدِ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ قَنِعَ رَزَقَهُ اللهُ رَاحَةَ البَالِ وَسَلَامَةَ الجَسَدِ مِنْ كَدِّ الطَّلَبِ، وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ لَمْ يَزَلْ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ، وَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ فِي الرِّزْقِ شَيْئًا مِمَّا كُتِبَ لَهُ». [فَتْحُ البَارِي لِابْنِ حَجَرٍ، (١١/ ٢٧٣)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "**دَلِيـلُ الزُّهْـدِ**"؛ فَالحَيَـاةُ لَيْسَـتْ سِـبَاقًا لِتَكْـدِيسِ مَـا لَا نَسْـتَطِيعُ اسْـتِهْلَاكَهُ، بَـلْ هِـيَ اسْـتِمْتَاعٌ بِالعَافِيَـةِ وَالرِّضَـا بمـا قسـم الله. فَمَـنْ مَلَـكَ صِـحَّةَ بَدَنِـهِ وَقَنَاعَـةَ قَلْبِـهِ، وسـلامة دينـه، فَقَـدْ ظَفِرَ بِأَغْلَى مَا فِي الدُّنْيَا، وَتَفَرَّغَ بَعْدَ ذَلِكَ لِعِمَارَةِ آخِرَتِهِ.

هَذِهِ الحِكْمَةُ هِيَ دِرْعُ المُؤْمِنِ فِي زَمَنِ التَّكَاثُرِ.

حصاد الأعمال خيرها وشرها

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

يَـا زَارِعَ الخَيْـرِ تَحْصِـدْ بَعْـدَهُ ثَمَـرًا ۞ يَـا زَارِعَ الشَّـرِّ مَوْقُـوفٌ عَلَـى الـوَهَنِ

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "عنـوان الحَصَـادِ" الَّـذِي تَقُـومُ عَلَيْـهِ العَدَالَـةُ الإِلَهِيَّـةُ؛ حَيْـثُ يُشَـبِّهُ العَمَـلَ بِالبَـذْرِ، وَالمَصِـيرَ بِـالثَّمَرِ، مُبَيِّنًـا أَنَّ النَّتِيجَةَ مِنْ جِنْسِ العمل.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: يا زَارِعَ الخَيْرِ تَحْصُدْ بَعْدَهُ ثَمَراً:

يُصَـدِّقُهُ قَـوْلُ اللهِ تَعَـالَى: ﴿مَـنْ عَمِـلَ صَـالِحًا فَلِنَفْسِـهِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وَقَوْلُـهُ ﷺ فِيمَـا يَرْوِيـهِ عَـنْ رَبِّـهِ: «يَـا عِبَـادِي إِنَّمَـا هِـيَ أَعْمَـالُكُمْ أُحْصِـيهَا لَكُـمْ، ثُـمَّ أُوَفِّـيكُمْ إِيَّاهَـا، فَمَـنْ وَجَـدَ خَيْـرًا فَلْيَحْمَـدِ اللهَ»

رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

قَـالَ الإِمَـامُ ابْـنُ القَـيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «الـدُّنْيَا مَزْرَعَـةُ الآخِـرَةِ، وَالعُمُـرُ هُـوَ وَقْـتُ البَـذْرِ، وَالأَعْمَـالُ هِـيَ البُـذُورُ، فَـإِذَا كَـانَ يَـوْمُ الحَصَـادِ، رَأَى كُـلُّ زَارِعٍ مَـا زَرَعَ، فَمَـنْ زَرَعَ خَيْـراً حَصَـدَ كَرَامَـةً، وَمَـنْ زَرَعَ شَـرّاً حَصَدَ نَدَامَةً». [المَصْدَرُ: مَدَارِجُ السَّالِكِينَ، (١/ ٥٠٦)].

قَوْلُهُ: يَا زَارِعَ الشَّرِّ مَوْقُوفٌ عَلَى الوَهَنِ:

أَيْ: أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ سَيُقَابَلُ بِالضَّعْفِ، وَالخِذْلَانِ، وَسُقُوطِ الحُجَّةِ عِنْدَ لِقَاءِ اللهِ، فَلَا يَجِدُ قُوَّةً يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ زَرَعَ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا، عَادَ شَرُّهُ إِلَيْهِ عِنْدَ المَوْتِ وَهَنًا فِي قَلْبِهِ وَذُلًّا فِي قَبْرِهِ، فَأَخْبَثُ الزَّرْعِ مَا أَوْرَثَ صَاحِبَهُ السَّخَطَ». [جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَمِ، (٢/ ٢٤٠)].

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ». وَهَذَا فِي زَرْعِ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ بِزَرْعِ المَعْرُوفِ وَالإِيمَانِ؟ [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ المَزَارِعَةِ، رَقْمُ: ٢٣٢٠].

كَانَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ:

تَزَوَّدْ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي ۞ إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الفَجْرِ

فَمَنْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَحْصُدَ الخَيْرَ غَداً، فَلَا يَبْخَلْ بِبَذْرِهِ اليَوْمَ».

[دِيوَانُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ هُوَ "**مِيزَانُ العَمَلِ**"؛ فَالدُّنْيَا لَيْسَتْ لِلتَّنَعُّمِ بَلْ لِلتَّعَمُّرِ بِالبَذْرِ الصَّالِحِ.

فَالَّذِي يَمْضِي أَيَّامَهُ فِي زَرْعِ الخَيْرِ، سَيَجِدُ ثَمَرَهُ ظِلّاً وَطَعَاماً فِي هَوْلِ القِيَامَةِ، وَالَّذِي يَبْذُرُ الشَّرَّ لَنْ يَجْنِيَ إِلَّا الشَّوْكَ الَّذِي يُعْجِزُهُ وَيُوهِنُهُ.

محاسبة النفس

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيَانِ وَاكْتَسِبِي ۞ فِعْلًا جَمِيلًا لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنِي

هَذَا البَيْتُ هُوَ "نِدَاءُ الإِيَابِ" وَمِسْكُ الخِتَامِ فِي هَذِهِ المَنْظُومَةِ؛ حَيْثُ يَنْتَقِلُ القَائِلُ مِنْ وَصْفِ المَوْتِ وَأَهْوَالِهِ إِلَى "مُخَاطَبَةِ الذَّاتِ"، وإِلى مَقَامُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَهِيَ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الوَعْظِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيَانِ:

هُوَ تَطْبِيقٌ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى في قوله: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ نَوْعَانِ: نَوْعٌ قَبْلَ العَمَلِ، وَنَوْعٌ بَعْدَهُ. فَأَمَّا الَّذِي قَبْلَهُ فَهِيَ الوَقْفَةُ عِنْدَ أَوَّلِ الهَمِّ، فَيَنْظُرُ: أَيُوافِقُ أَمْرَ اللهِ فَيَفْعَلَهُ، أَمْ يُخَالِفُهُ فَيَكُفَّ عَنْهُ؟». [إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ لِابْنِ القَيِّمِ، (١/ ٨١)].

قَوْلُهُ: وَاكْتَسِبِي فِعْلاً جَمِيلاً:

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الحَيَاةَ مَيْدَانٌ لِلرِّبْحِ الحَقِيقِيِّ، وَهُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَ فَنَاءِ الجَسَدِ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا مَنْ ضَاعَ عُمُرُهُ فِي العِصْيَانِ، اسْتَدْرِكْ مَا بَقِيَ بِالإِحْسَانِ، فَإِنَّ الفِعْلَ الجَمِيلَ يَمْحُو أَثَرَ الذَّنْبِ الثَّقِيلِ». [لَطَائِفُ المَعَارِفِ لِابْنِ رَجَبٍ، ص: ٣٤١].

قَوْلُهُ: لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنِي:

هذا هُوَ مَقَامُ "العُبُودِيَّةِ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ"؛ فَالإِنْسَانُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِمُجَرَّدِ عَمَلِهِ، بَلْ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالعَمَلُ سَبَبٌ لِتِلْكَ الرَّحْمَةِ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ». [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ المَرْضَى، رَقْمُ: ٥٦٧٣].

كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، فَمَنْ أَطَاعَهَا قَادَتْهُ إِلَى الهَلَاكِ، وَمَنْ كَفَّهَا عَنِ

الهَـوَى نَـالَ المُنَـى، فَـارْحَمْ نَفْسَـكَ بِتَـرْكِ مَعَاصِـيكَ». [الزُّهْـدُ لِلإِمَـامِ أَحْمَدَ، ص: ١٤٢].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "طَـوْقُ النَّجَـاةِ"؛ فَبَعْـدَ أَنْ طَافَـتْ بِنَـا القَصِيـدَةُ فِي مَنَـازِلِ المَـوْتِ وَالفَنَـاءِ، أَعَادَتْنَـا إِلَـى مَيْـدَانِ الحَيَـاةِ بِأَمَـلٍ جَدِيـدٍ. المَطْلُـوبُ هُـوَ (الكَـفُّ) عَـنِ القَبِـيحِ، وَ(الكَسْـبُ) لِلْجَمِيـلِ، مَـعَ التَّعَلُّقِ بِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

استدراك العمر قبل فواته

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

يَا نَفْسُ وَيْحَكِ تُوبِي وَاعْمَلِي حَسَنًا ۞ بِالحُسْنِ بَعْدَ المَوْتِ عَسَى تُجَازَيْنَا بِالحُسَنِ

هَذَا البَيْتُ هُوَ "نِدَاءُ الِاسْتِدْرَاكِ وَخَاتِمَةُ التَّوْبَةِ"، حَيْثُ يَنْتَقِلُ النَّاظِمُ مِنْ زَجْرِ النَّفْسِ إِلَى فَتْحِ بَابِ الرَّجَاءِ، مُؤَكِّدًا عَلَى قَاعِدَةِ "الجَزَاءِ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: يَا نَفْسُ وَيْحَكِ تُوبِي:

وَكَلِمَةُ (وَيْح) كَلِمَةُ تَرَحُّمٍ وَتَوَجُّعٍ، وَهِيَ هُنَا لِاسْتِمَالَةِ النَّفْسِ لِلإِنَابَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ.

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَا مِسْكِينُ، وَيْحَكَ! تُبْ قَبْلَ أَنْ تُسْلَبَ، وَاعْمَلْ قَبْلَ أَنْ تُغْلَبَ، فَإِنَّ المَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً، وَالقَبْرَ صُنْدُوقُ العَمَلِ». [التَّبْصِرَةُ لِابْنِ الجَوْزِيِّ، (٢/ ٢١٥)].

قَوْلُهُ: عَسَى تُجَازَيْنَ بَعْدَ المَوْتِ بِالحَسَنِ:

هُوَ مِصْدَاقُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وَلفظة: "عَسَى" مِنَ اللهِ تَعَالَى وَاجِبَةُ التَّحَقُّقِ لِمَنْ صَدَقَ فِي تَوْبَتِهِ.

قَالَ الإِمَامُ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الحُسْنَى هِيَ الجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ، وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ بِالتَّوْبَةِ». [جَامِعُ البَيَانِ لِلطَّبَرِيِّ، (١٢/ ١٧)].

قَوْلُهُ: بَعْدَ المَوْتِ:

فِيهِ تَنْبِيهٌ إِلَى أَنَّ دَارَ العَمَلِ تَنْتَهِي بِمُجَرَّدِ خُرُوجِ الرُّوحِ، وَتَبْدَأُ دَارُ الجَزَاءِ.

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ». [مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ، رَقْمُ: ١٧١٢٣، والحديث يحسنه بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ].

كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّ اليَقِينَ اسْتَقَرَّ فِي القُلُوبِ لَطَارَتْ فَرَحًا إِلَى الجَنَّةِ، أَوْ حُزْنًا مِنَ النَّارِ، فَمَنْ أَرَادَ الحَسَنَ بَعْدَ المَوْتِ فَلْيُحْسِنِ العَمَلَ قَبْلَ الفَوْتِ». [حِلْيَةُ الأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نُعَيْمٍ، (٧/ ١٧)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "**خَاتِمَـةُ المَطَـافِ**"؛ فَالـدُّنْيَا سَـاعَةٌ، فَلْتَجْعَلْهَـا نَفْسُـكَ لله طَاعَـةً. وَالعَمَـلُ الحَسَـنُ هُـوَ المَهْـرُ الَّـذِي يُـدْفَعُ فِـي الـدُّنْيَا لِتَحْصِـيلِ النَّعِـيمِ فِـي الآخِـرَةِ. فَـاللَّهُمَّ ارْزُقْنَـا تَوْبَـةً نَصُـوحًا، وَاجْعَلْ خَيْرَ أَعْمَالِنَا خَوَاتِيمَهَا، وَخَيْرَ أَيَّامِنَا يَوْمَ لِقَائِكَ.

الصلاة على المصطفى

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

ثُـمَّ الصَّـلَاةُ عَلَـى المُخْتَـارِ سَـيِّدِنَا ۞ مَـا وَضَّـأَ البَـرْقُ فِـي شَـامٍ وَفِـي يَمَـنِ

هَـذَا البَيْـتُ هُـوَ "مِسْـكُ الخِتَـامِ" وَعِطْـرُ المَنْظُومَـةِ؛ حَيْـثُ جَـرَتْ عَـادَةُ العُلَمَـاءِ وَالشُّـعَرَاءِ أَنْ يَخْتِمُـوا مَـوَاعِظَهُمْ بِالصَّـلَاةِ عَلَـى النَّبِـيِّ ﷺ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى المُخْتَارِ سَيِّدِنَا:

فِيـهِ امْتِثَـالٌ لِأَمْـرِ اللهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَـهُ يُصَـلُّونَ عَلَـى النَّبِـيِّ يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا صَـلُّوا عَلَيْـهِ وَسَـلِّمُوا تَسْـلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

رَوَى الإِمَـامُ مُسْـلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ: عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـالَ: «مَـنْ صَـلَّى عَلَـيَّ وَاحِـدَةً صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ عَشْرًا». [صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، رَقْمُ: ٤٠٨].

قوله: المُخْتَارِ:

المختار ليس من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم أنما هو من باب الإخبار.

قَوْلُهُ: مَا وَضَّأَ البَرْقُ:

تَوَضَّأَ البَرْقُ أَيْ: تَلَالَأَ وَأَضَاءَ. وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الِاسْتِمْرَارِ وَالتَّجَدُّدِ، فَمَا دَامَ البَرْقُ يَلْمَعُ وَالضِّيَاءُ يَسْطَعُ، فَالصَّلَاةُ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَفْتُوحَةٌ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَبِكُلِّ كِنَايَةٍ تَدُلُّ عَلَى دَوَامِ الذِّكْرِ، وَالتَّشْبِيهُ بِظَوَاهِرِ الكَوْنِ كَالبَرْقِ وَالمَطَرِ مَقْصُودُهُ التَّكْثِيرُ وَالدَّوَامُ». [جَلَاءُ الأَفْهَامِ لِابْنِ القَيِّمِ، ص: ١٢٢].

قَوْلُهُ: فِي شَامٍ وَفِي يَمَنِ:

خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ لِفَضْلِهِمَا وَبَرَكَتِهِمَا فِي الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، وَلِأَنَّهُمَا جَنَاحَا جَزِيرَةِ العَرَبِ.

رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا».** [صَحِيحُ البُخَارِيِّ، كِتَابُ الفِتَنِ، رَقْمُ: ٧٠٩٤].

كَانَ الإِمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا إِخْوَانِي، لَا تَخْتِمُوا صُحُفَكُمْ إِلَّا بِخَيْرِ الكَلَامِ، وَخَيْرُ الكَلَامِ بَعْدَ ذِكْرِ المَلِكِ العَلَّامِ، الصَّلَاةُ عَلَى المَبْعُوثِ لِلأَنَامِ، فَإِنَّهَا تَمْحُو الذُّنُوبَ وَتُبَلِّغُ المَرَامَ». [التَّبْصِرَةُ لِابْنِ الجَوْزِيِّ، (٢/ ٢٨٠)].

الخُلَاصَةُ من البيت:

بِهَذَا البَيْتِ تُغْلَقُ صَفَحَاتُ هَذِهِ المَوْعِظَةِ المُؤَثِّرَةِ (لَيْسَ الغَرِيبُ)، لِيَكُونَ آخِرُ عَهْدِ القَارِئِ بِهَا هُوَ الصَّلَاةُ عَلَى مَنْ جَاءَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، عَدَدَ مَا أَضَاءَ بَرْقٌ، وَعَدَدَ مَا هَمَى مَطَرٌ، وَعَدَدَ مَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الغَافِلُونَ.

الحمد والثناء على الله تعالى

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وَالحَمْـــدُ للهِ مُمْسِـــينَا وَمُصْـــبِحِنَا ۞ بِـــالخَيْرِ وَالعَفْـــوِ وَالإِحْسَـــانِ وَالمَـــنَنِ

هَـــذَا البَيْـــتُ هُـــوَ: "بَيَـــانُ التَّمْجِيـــدِ وَالِاعْتِـــرَافِ بِالفَضْـــلِ للهِ تعـالى"، وَهُـوَ مِسْـكُ الخِتَـامِ بَعْـدَ الصَّـلَاةِ عَلَـى النَّبِـيِّ ﷺ؛ حَيْـثُ يَعُـودُ العَبْـدُ إِلَـى رِحَـابِ الحَمْـدِ، مُقِـرّاً بِـأَنَّ كُـلَّ نِعْمَـةٍ يَتَقَلَّـبُ فِيهَـا صَبَاحـًا وَمَسَاءً هِيَ مَحْضُ فَضْلٍ مِنَ اللهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: وَالحَمْدُ للهِ مُمْسِينَا وَمُصْبِحِنَا:

يَمْتَثِـلُ هَـدْيَ القُـرْآنِ فِـي قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَـهُ الْحَمْـدُ فِـي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨].

ذَكَرَ النَّاظِمُ أَرْبَعَةَ رَكَائِزَ لِتَعَامُلِ اللهِ مَعَ عِبَادِهِ:

١- **بِالخَيْرِ**: وَهُوَ كُلُّ مَا يَنْفَعُ العَبْدَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

٢- **العَفْـوِ**: وَهُـوَ مَحْـوُ الـذُّنُوبِ وَسَـتْرُ العُيُـوبِ وَهُـوَ مَطْلَـبُ كـل عبد.

٣- **الإِحْسَانِ**: وَهُوَ العَطَاءُ الزَّائِدُ عَلَى مُجَرَّدِ الكِفَايَةِ.

٤- **المِنَن**: جَمْعُ مِنَّةٍ، وَهِيَ النِّعْمَةُ الَّتِي لَا يَمْلِكُ العَبْدُ لَهَا ثَمَنًا.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أَعْلَى مَقَامَاتِ الحَمْدِ أَنْ يَشْهَدَ العَبْدُ فِي كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ، وَفِي كُلِّ تَقَلُّبٍ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، سَوَابِغَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، فَيَسْتَحْيِي أَنْ يَكُونَ مَعَ هَذَا الإِحْسَانِ عِصْيَانٌ، أَوْ مَعَ هَذِهِ المِنَنِ غَفْلَةٌ**». [طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ لِابْنِ القَيِّمِ، ص: ٢٣١].

الحَمْدُ خَاتِمَةُ كُلِّ أَمْرٍ:

كَانَ الإِمَامُ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَبْدَأُ كُتُبَهُ بِالحَمْدِ وَيَخْتِمُهَا بِالحَمْدِ، وَيَقُولُ: «**الحَمْدُ للهِ أَوَّلاً وَآخِراً، وَظَاهِراً وَبَاطِناً، فَمَا تَمَّتْ صَالِحَةٌ إِلَّا بِفَضْلِهِ، وَلَا كُشِفَتْ ضَائِقَةٌ إِلَّا بِعَفْوِهِ**». [تَارِيخُ الرُّسُلِ وَالمُلُوكِ لِلطَّبَرِيِّ].

الخُلَاصَةُ من البيت:

هَذَا البَيْتُ هُوَ "**تَوْقِيعُ الرِّضَا**"؛ فَبَعْدَ ذِكْرِ المَوْتِ، وَالقَبْرِ، وَالحِسَابِ، وَالغُرْبَةِ، وَتَقَاسُمِ الأَمْوَالِ، لَمْ يَجِدِ العَبْدُ مَلَاذاً إِلَّا "**الحَمْدَ**". فَالحَمْدُ للهِ الَّذِي رَزَقَنَا حَيَاةً لِنَتُوبَ، وَسَتَرَنَا بِالعَفْوِ لِنُؤَمِّلَ، وَغَمَرَنَا بِالإِحْسَانِ لِنَطْمَعَ فِي رَحْمَتِهِ.

تَمَّ الشرح بما يسر الله على الأَبْيَاتُ بِحَمْدِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ،

والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

مقدمة الشيخ فيصل الحاشدي ٥
مقدمة ٧
ترجمة الناظم ١٣
أقوال أهل العلم والمحققين في المنظومة ١٧
أبيات المنظومة ٢٠
مقدمة التعليق ٢٣
بيان حقيقة الغربة ٢٤
بيان بعض من حقوق المسلمين فيما بينهم ٢٦
طول السفر وقلة الزاد ٢٨
الاعتراف بالذنوب ٣٠
ستر الله وعفوه عن عبده ٣٢
سرعة مرور العمر وغفلة العبد عن ذلك ٣٤
الخلوة بالمعاصي ٣٦
التحسر على التفريط في طاعة الله ٣٩
محاسبة النفس على رقابة الله تعالى ٤٢

حالة الاحتضار..... ٤٥
حالة الأهل عند الفراق..... ٤٧
إعياء الطبيب أمام الموت..... ٥٠
منازعة الروح..... ٥٣
خروج الروح من الجسد..... ٥٥
حالة الجسد بعد خروج الروح..... ٥٨
الاستعداد لتغسيل الميت..... ٦١
التحري في المغسل..... ٦٤
نزع الثياب عن الميت..... ٦٧
وضع الميت على لوح التغسيل..... ٧٠
تغسيل الميت..... ٧٣
تكفين الميت..... ٧٦
الخروج من الدنيا..... ٧٩
تشيع الجنازة..... ٨٢
تقديم الميت للصلاة عليه..... ٨٥
كيفية الصلاة على الميت..... ٨٨

إنزال الميت إلى قبره..... ٩١
الاعتبار بحالة الميت في قبره..... ٩٤
تصفيف اللبن قبل الدفن..... ٩٧
مواراة الميت تحت التراب..... ١٠٠
وحشة القبر..... ١٠٣
وحدة القبر وقلة الزاد..... ١٠٦
هول القبر ووحشته..... ١٠٩
الفزع من منكر ونكير..... ١١٢
سؤال الملكين..... ١١٥
اللجوء إلى الله بالتثبيت..... ١١٨
نسيان الأهل لميتهم وقسمة الميراث..... ١٢١
زواج الزوجة بدلا من زوجها..... ١٢٤
ذهاب الأموال والأولاد..... ١٢٧
التحذير من الدنيا وغدرها..... ١٣٠
مفارقة الدنيا لأصحابها..... ١٣٤
القناعة من الدنيا..... ١٣٧

حصاد الأعمال خيرها وشرها..... ١٤٠
محاسبة النفس..... ١٤٣
استدراك العمر قبل فواته..... ١٤٦
الصلاة على المصطفى ١٤٩
الحمد والثناء على الله تعالى..... ١٥٢
المحتويات..... ١٥٥